قصص قصيرة

الطير مهاجر إلى كون سرمدي

د . خليل فاضل



١٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخراج الفنى : سهير معطى

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

الطير يهاجر الى كون سرمدى

● الرحـــلة :

« لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » — قرآن كريم .

الطير يهـــاجر . كمد كثيف يملؤه . حزن طاغ يعلوه . صـــدره يتورم وجناحه ينكسر — ينسكب دمعه داخله مسرورا متدفقا عارما كالسيل . تجاوبه السماء بأنات متفاوتة تتسدد بعدها تحت أكفان السحابات — وكأن الرايات قد اعتلت الخيمة الزرقاء حين بان فى الأفق قوس قزح بألوانه السبعة الزاهية . تخطى الطـــير طريق الرحلة وشرع يرقص على درج قوس قـــزح فى مهارة — كان كمده وحزنه ينسكبان رويدا فى تجاويف السماء

وكان ظله يرتمى على الصحراء المبتلة بمياه المطر مكونا مساحة محدودة من الفيء الذى تناسخت فيه بعد حين نباتات الصبار .

الصحراء مهيضة فى الشتاء . هضابها تنحتها عوامل التعرية فتبدو عجفاء معروقة ــ سهولها قيعان مجدبة وحصواتها لا تلتمع والتلال أثداء عديدة عقيمة لا تحمل قطرة لبن .

الطير يهاجر فى رحلة الشتاء ــ الكمد الداخلى يتحول الى شعور مبهم بالعجز وحين يدور محرك السيارة تنكشف عوالم الطريق ــ يرفع عسكرى المرور يده تحية للسائق . تتآكل أطراف العجلات والمحرك يسترسل فى لغط أجوف مع أسفلت الطريق .

الطير يطوى الأحلام تحت جناحيه : يترقب بالعينين انفتاحات الطرق الجديدة والملاهى التى تعلن عن نفسها فى صخب ، ويظل يومىء للجميع حتى ينحنى وتستد رقبته سهلة يذبحونها فى هدوء . وبدون بسملة أو تكبير .

● **سفر التكوين :**

حينما تهجع الحروف الى الطين وتنصبغ الكلمات بالعفن تنفتح جروح الرؤية ــ تنعقد الجباه . تتلوى الأرحام من الألم فثمة نزيف يعقب الاجهاض يحمل معه مخلفات الجنين المشوه .

بويضة الصدق التى لقحها حيوان الكذب أو بويضة الكذب التى لقحها حيوان الصدق •

● العراك :

الطير يتصارع فى حلبة الرغبة مع كثيرين • بعضهم طرحه أرضا ويدوس على عنقه بكعب الحذاء ، والآخر يتهاوى تحته مقبلا وجه الحذاء ، والباقون يصفقون ويصفرون ويتعاقدون على مراهنات الجولة المقبلة •

● عن الطير والضوء :

أجنة الضوء حينما تولد فى الأعين ساعة المساء تستيقظ الأحلام وتبدو قرمزية بنفسجية – يتربع الوجه الملائكى الوضىء المبتسم على عرش التفكير • تتوه فى المسافات بين الأعين والحوائط والنوافذ المغلقة والباب الموصد كل احتمالات اندحار الليل أمام أى شىء آخر غير النهار البعيد • ولما قالوا ان النجمات بعيدة وان القمر مستمد ضوءه من الشمس ، وان كلنا يعتمد على الآخر فى كل الأشياء ، انسكبت دموع سخينة على جناح الطائر المكسور فأحسها كساء النار تكويه لكنه رغم ذلك لم يصرخ • لم يفكر حتى فى التألم وبين ذاته •

● **قـريش :**

صديد يسكن البؤر الملتهبة بحلوق جميع أفراد القبيلة • الشيخ يعلن زواج العبد بالأميرة • ترسـل الابل صوتا مبحوحا تبرك فى أثره النوق ، ولمـا سئلوا عن أسباب نحرهم لها قالوا كرم عربى • لكن اتضحت الأمور بعد ما تيقن للجميع أن اللحم الجملى أرخص اللحوم وأكثرها سوءا • على طول المدى كان الطير يقنع بالجيفة • ورغم هـذا فقد فجأة احساسه بالتذوق وصار يزعق عند الفجر بدلا من الديوك التى كان يحلو لها أن تصحوا على عزف الجيتار الكهربائى :

● **الفقـر :**

« عجبت من لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » أبو ذر الغفارى •

الطـير يسرق ــ [illegible] بهـذا ــ لم تعد المناقـير تستطيع الجهاد ــ وكلنا مهيض ــ خيال المـآتة آمره مكشوف • والأرض مكشوفة • والطعام لمن يأكله ــ ثمة ايمان موقن به من حتميـة التخـ[illegible]ن • العام عـام قحط • النسوة خير من يحذقن هـذه [illegible]مور • حين خرجت كل الطيور شاهرة سيوفها على بعضـها أجفلت ــ أيقنت أن ثمة سرا يرقد فى كهف الساحر • ولمـا ذهب

أحدهم للاستكشاف قال ان هنـاك حمامتين وبيضا كثيرا • يقال انهما فى مكانهما منذ أيام الرسول • ويقال أيضا انهما اللتان حرستا النبى والصديق أبو بكر • لمـا تجرأ الطير أكثر وتقدم ، اكتشف أن الحمام تماثيل من الجبس وراء الكهف يحوى مخزون دهر بأكمله • حينئذ أغمد كل سـيفه ــ فالتوت كان موجودا هناك • لكن الرحلة شاقة وطويلة • والبقاء للأصلح • للأقوى ــ لا الذكاء يجدى ولا أشياء أخرى فى علم الله •

● الكسـوف :

كان لا يحدث الا نادرا كسوف الشمس • حدث هـذا العام • الطير الذكى انتهز الفرصـة وهاجر الى الكون الآخر • هاجر ولم يعد • قيل انهم هناك سألوه عن الهوية فكشف لهم عن عورته ودخل •

● ملاحظـة :

من يومها وباقى الطيور تنتظر الكسوف مرة أخرى • لكن سـدى ما تفعله • فلقد قيل أيضـا انه يحـدث بعد ذا الأرض سوف تقترب من الشمس وسوف تحترق •

المـوال الحـزين

عار تماما كما ولدتني أمي • واقف بين جدران الحمام المظلم الضيق للغاية ، المفتوح من السقف ، ذي الباب المتحرك • حمام معسكر أو معتقل أو ضمن حمامات سكنى جماعية •

كان المـاء يندفع من الرشاش في قوة وفي صرير ينساب على البلاط ، يتسرب في البالوعة المسدودة : أنـا أغوص أحرر بخوف الابتعاد عن المـاء • أتجنب بكل الجهد والقوة ، امكانية اغلاق جفني فمعنى حدوث هذا هو ضياعي •

بدأ الخوف يسيطر على تماما • ثمـة ظـلال ترتمي على الهادئ ، وصمت قبري يرين على المكان • كلهم نائمون برابهم مغلقة عليهم وكأنهم موزعون في توابيت منتظمة مغلقة عليها حجراتها •

تخلصت بسرعة من بقايا الصابون المتناثر فوق جسدى العارى • أغلقت الرشاش ، واقتنعت تماما أنى قد هربت من الخوف الهائل رغم الاصطدامات المرتعشة من لقاءات دقات قلبى المضطربة بالحوائط الضيقه المستطيلة •

ارتديت ملابسى على عجل • اتخذت زينتى تماما • تقدمت قافزا فوق الدرج حتى بلغت منتهى السور المقام • فتحت الباب فى هدوء • لم يقلق الشرطى النائم الحالم الغبى داخل كشكه الخشبى الملاصق للسور •

كان الشارع وقتذاك مضاء بالمصابيح النيون • كان متسعا ونظيفا تشقه من الوسط حديقة مستطيلة متقطعة تسرق خلاله عربات آخر الليل المسرعة ، تفوح منها روائح الانكسار البشرى فوق الحافة الفضية اللامعة للظلام • ظللت أسير برفق • صدرى يرتج ، وذكرى الخوف الرهيب تحت المياه داخل الحمام القبرى تلاحقنى • بدأت من تأليف الموال الريفى الحزين (سافر حبيبى من غير وداع •••) لصوتى المشروح ، وحلقى الملتهب أشق الفراغ مقتنعا تماما أننى أفضل ملبون مرة من سيد البلابل وملك الكروانات ، واننى عديم الحظ ولولاه لكنت ألمع مغن فى الأوبرا العالمية •

كانت آثار الصداع لم تزل تدغدغنى فى سقامة ، تقلقنى

وتحشرج من استرسال الموال الحزين ... توقفت عن السير لدى محطة (المترو) ووقفت أرقب (سافو) وهو يرقص مبتسما فوق حافة الاعلان ، وعلى رؤوس كل الناس بالمحطة وكأنه مليك البلاد المحبوب المخلد وهذا أحد تماثيله المنتشرة . مشادة عنيفة طرفاها مفتش المحطة وبعض الركاب المتذمرين يتهم فيها المفتش الشعب بأنه شعب قواد وان الذين يستعجلون (المترو) عليهم أن يستعجلوا نساءهم قبلا . كان من ضمن الجمع المنتظر (منجد) وصبيانه يتبادلون النكات ويسكون بمذياع صغير مكسور وملصق من جميع جوانبه . امرأة حبلى عيناها منتفختان ووجهها متورد تبدو عليها أمارات الزيادة الهرمونية . ابن بلد سمين على أكبر احتمال أنه جزار . جلبابه الأبيض متسع يبدو واضحا تحته السروال . وأخيرا .. أتى (المترو) متدحرجا فوق القضبان ، ثملا ، محتجا مستكينا بجوار الرصيف ، تنفتح أبوابه فى ملل تستقبل الجمع القافز فى سرعة . الطريق عاد ، (المترو) يسير . وعند المحطة التى لم يرها أحد انحنيت على أذن السائق بكلمة السر ، فتوقف القطار ، ومضيت أنا كالشبح ... وهنا لم يلحظ الجزار سوى معاينة اللحوم البشرية [illegible]ة السمينة البيضاء ، وتعديل سرواله الساقط . المرأة [illegible]حامل كانت منشغلة بالحديث مع زوجها عن لفائف الطفل وكيفية الولادة . (المنجد)وصبيانه كانوا غارقين فى الضحك أثر نكتة بذيئة خدرتهم ولعبت برؤوسهم . كقردة عجوز شمطاء

تساحق احدى بناتها بدت عربة (المترو) وهى تحتوى هـذا الجمع ، وهى تتوقف دون أن يحس ، وحين كنت أنـا فى الخارج تيقنت أن السائق أيضا لم يفهم ما قلته له ، فلقد كانت كلماتى له عادية لكنه أصاخ السمع ونفذ الأمر وتمت المهمة •

تقدمت نحو قطعـة الأرض الخراب المنبسطة • لم يزل الظلام يلف الكون • نهايات أطراف لفافات التبغ المشتعلة تبدو كلؤلؤات رخيصة فوق بساط أسود • تقدمت أكثر نحو قطعـة الأرض الخراب • علمت منذ لحظات أننى قد ورثتها عن جدى الذى مات منذ زمن • لكنها محتجزة لدى الأوقاف • تقدمت أكثر وصرت وسطهم • كانوا قطعا منحوتة من الظـلام ملامحها ضائعة تماما وكانوا يكونون حلقة ناقصة • حييتهم بصوت عال فردوا فى همهمة متآلفة • مضيت أتحدث وأتحدث وفمى يلوك الكلمات . ويسوق الحجج فى سرعة كأننى محـام بارع يدافع عن قضية قتل مع سبق الاصرار • كانت الأرض الخربة ملكى • نعم لشهادة وزارة الأوقاف • لدى سـندات وشـهود • كانوا يستمعون فى صمت وتحديقـاتهم رغم حلكـة الظلـة ،كنت أحسها تخترقنى وتترك فوق جـلدى جروحا تدمى • حاولت جاهدا لكنى لم أستطع أن أتبينهم • سادت فترة صمت وجيزة رهيبة فى أثرها بدأ أحدهم بصوت حاد رفيع يتكلم :

هـذه الأرض موجودة هنا منـذ زمن ، ونحن ملاكهـا الحقيقيون بدون سندات وبدون شهود •

تلاه صـوت خشن ضخم :

ـ ونحن تركناها خرابا وكان باستطاعتنا أن نبنى فوقها كل ما يمكن بناؤه ، لكن لغرض سرى لا يعلمه سوانا آثرنا أن تبقى خربة .

تلاه صـوت متحشرج منفعل :

ـ اذا كنت تريـد التحـدى فقلهـا علنـا ، ولا داعى للمحـاورات .

...أعقبه صوت يجمع فى نبرته كل نبرات السابقين .

ـ كن رجلا واعرب عن وجهة نظرك فى قوة !!

أسقط فى يدى . كانت مياه الرشاش ترتطم بوجهى فى عنف ، وكنت أتحاشى أمكانيـة اغـلاق عينى وتسرب الميـاه والحوائط المستطيلة تداهمنى تهاجمنى تمزقنى تهلهلنى ، وأنـا مزق مبعثرة تحـاول أن تستجمع ذاتها من خوف .

حاولت اخراج الكلمات دون تعثر . فعلا حاولت . محاولة جـادة . محاولة يائسة :

ـ سـأبنى هنـا ما سأبنيه وفيه سـتكون لكم السكن والمعيشة دون اجر ...

•••وكانت الضحكات الساخرة تسرى بينهم ، تتواصل ، تتحد ، ترتفع •• كقهقهة واحدة محتدمة عالية تقذف فى آذانى بصديد مؤلم وساخن ••

قال الصوت الجاد الرفيع :

ـ أخبرناك أننا كنا نستطيع بناءها لكننا أردناها خربة نعم خربة •

ورددت • لم أدر بعدئذ كيف أتتنى شجاعة المواجهة والسؤال •

ـ وما الحكمة فى ذلك ؟ !

قال الصوت الخشن الضخم :

ـ سر لا يعلمه سوانا •

كنت واثقا أنه لا حيلة لدى • حقا معى الشهود والشهادات والقانون و ••• و ••• لكن القطع المنحوتة من الظلام • ذؤاباتها الملتمعة تلسعنى • تحديقاتها تطبع فوقى مقترحات متقيحة •• مؤلمة •• وحادة •

انسحبت فى هدوء • بدأت بالخطو المعتاد • ثم انفرجت الخطوات • تباعدت • اضطربت • صارت عدوا • عدوا لاهثا

مسرعا محدثا ايقاعا متواليا فوق الشارع المضـاء بالنيون •
الشارع النظيف المـارقة خلاله عربات آخر الليل تئز بجانبى
كسهام قبيلة آكلة لحم البشر تلاحقنى •

توقفت عند محطة المترو • وتيقنت من سر بسمة (سافو)
الخبيثة • كان وضعه الراقص فوق الاعلان • فوق الرؤوس
بمثابة تهديد لأى تفكير جاد من ناحيتى •• بعد حين مر (المترو)
من أمامى ولم يقف • كان السائق يطالعنى من خـلال الزجاج •
صرخت بأعلى صوتى بكلمة السر ، لكنه مضى • كان قد فهم •
وأنـا •• أدركت الأمر بكل أبعاده وحواشيه •• كان على أن
أسير • ظللت أتأرجح بجوار الأرصفة ، أواصل تكملة موالى
الحزين :

(سـافر حبيبى من غـير وداع
وسابنى تايه فى قلب المدينـة)

••• حراس معسكرات الجيش يقفون مدججين محملقين
وأنـا أغنى •• مبتعدا عنهم تماما •• حتى انتهيت • توقفت
عند الباب الحديدى • دفعته فى هدوء ، لكنه أحدث صوتا أفزع
الشرطى النائم الحـالم الغبى القابع فى كشكه الخشبى ، وتقدم
منى يمسح عن عينيه آثار النوم • يحملق فى فى دهشة :

ــ سيادتك كنت فين ؟ !

حقا لم أتوقع السؤال ، ففى كل مرة كنت أدخل دونما سؤال .

رددت :

ــ كنت فى حفل عيد ميلاد صديق !

لم يعلق . ولم أطل النظر اليه . تقدمت حتى صرت بالحجرة المظلمة وكلهم ما زالوا نياما كجثث متساوية داخل توابيت محنوطة . مغلقة عليها حجراتها .

عار تماما كما ولدتنى أمى . منتصبا فى وسط الحمام الضيق . مياه الرشاش تهبط فى قسوة . فى ايلام . فى صوت مفزع . لكنى فى هذه المرة كنت أتعود اغلاق عينى دونما فزع ، وأطلت التحديق فى مساحات الحمام المستطيلة ، وتسرب المياه فى البالوعة كنت قد تجرأت عليها . ألامسها بقدمى الحافيتين . أنقر على الباب الخشبى فى ايقاع جرىء جاد متلاحم لكى أسترسل فى تكملة الموال الريفى الحزين :

(والصبر ما عاد ينفع .

غير كلمة للجبان يغنيها)

انتصار الكهنة

١

كان مستلقيا على الشاطىء يبكى بكاء مرا حتى تقرحت عيناه وفجأة هدر الموج وكأن طوفانا عظيما • يدور ثم يهدأ ؛ فجأة ينشق البحر عن آدمية جميلة عيناها حمامتان وشعرها كقطيع ماعز رابض وشفتاها كسلكة من القرمز وفمها حلو وخدها كفلقة رمانة وكلها كانت جميلة ليس فيها عيب ، ولما نظر اليها توقف الدمع فى مآقيه ودهشت نفسه وظل يحملق فيها • لكنها ابتسمت اقتربت منه فى حنو وسألته مهتمة :

ـ ماذا يبكيك ؟ هلا أنبأتنى ؟ •

سدر فى البعيد واسترجع كل رؤاها الجميلة ، كان يجمع شتات الكلمات ليجيب على سؤالها :

ـ كنت ورفاقى الصيادين فى وسط البحر ولما ظللنا ما يقرب من عشرة أعوام تخرج لنا الشباك أسماكا عبارة عن تماثيل من الجبس ، فزعنا وجعنا ، تهالكنا ، لكن لم نمت ، واضطررنا أن نأكل التماثيل حتى نشبع ، ولما تسممت دماؤنا ، جاءوا الى وقالوا لى ـ قم اصرخ الى الهك عسى أن يذكرنا الاله فلا نهلك ، فأخبرتهم أننى بغير اله ولا هوية ، فقال بعضهم لبعض هلم نلقى قرعة لنعرف بسبب من هذه البلية ، فألقوا القرعة فوقعت على فرمونى الى البحر فالتهمنى حوت ولما كنت عسرا لفظنى الحوت الى البر وأنا على هذه الحال أبكى بشدة لأن شباكى ما زالت تجلب الأسماك الجبس وقد فقدت عشيرتى ومازلت منذ البداية بغير هوية ولا اله ؟ ..

أطرقت تستمع الى قصته لكنها ما لبثت أن هدأت من روعه وقالت له اطرح شفتيك فوق شفتى واملأنى حبا وستزخر شباكك بسمك حقيقى فلما شده حديثها قال :

ـ انك جميلة عيناك حمامتان .

تأملته هنيهة ثم قالت :

ـ رأسك ذهب أبريز وعيناك كالحمام على مجارى المياه مغسولتان باللبن .

انتفض ، قام ، طرح شفتيه فوق شفتيها ولف ذراعيه حولها

فغابت فى العالم الجديد وتأملته فى صفاء أخبرته أنه حبيبها الذى تبحث عنه من زمن ، كانت فى قاع البحر وعليها كل المغاليق فأتاها شيء خفى قال انه من عند الرب وفك عنها مغاليقها وتركها لحالها ولم يخبرها بشيء ٠

ولما طرح شباكه زخرت بالسمك الحى فشويا وأكلا وهنئا وسرا سرورا ما بعده سرور ، ولما أوجبت عليه ضرورة ذهابهما الى المدينة حيث يبيعان السمك ويشتريان مستلزمات حياتهما الجديدة : أفهمها أنه يجهل تماما تواجد مدينة قريبة ولا يعرف شيئا عن أهليها ، لكنها ضأته الى أنها تدرك كل هذه الأشياء ٠

سارا يثرثران ومن حولهما الغدران والأشجار والأجواء تتعبق بالطيوب ، وأمامهما تجرى الغزلان والظباء وأيائل الحقول ٠٠ كانت والأطيار تغنى وتصدح وكأن العرس الكبير قد حل ٠

وصلا الى المدينة وأفهمته أنه يجب عليه الاختباء نظرا لأنه بدون اله وبدون هوية وحرصا على أن يدوما لبعضهما ٠ رضح لأمرها ورقد فى كهف بعيد لا يصل اليه أحد ٠ وظل فى الرطوبة والعتمة يجتر ذكرى اخوانه والحوت وتماثيل الأسماك ٠

باعت السمك واشترت لوازمها وعادت اليه جذلى متعبة

فأراحت رأسها على صــدره فشرع ينسج من شعراتها غطـاء له ، كان جميلا معطرا ووقاه من أشياء كثيرة يخافها ، على حين غرة قام منتصبا سائلا اياها :

ــ وأنت هل لك اله وهوية ؟؟

ابتسمت فى هدوء وأجابت بأن لها الها يدين به آهل المدينة وأن لها هوية توجب عليهم حمايتها ، لكنها أخبرته أنهم يرفضونه لأنه رغم دعواه بأن لا اله له ولا هوية فهم يعرفون جيدا من هو الهه وما هى هويتــه وأنهم قــد علقوا صورته على الجــدران منذرين كل فتياتهم من الحديث اليه نظرا لسحره الشديد ولقدرته البارعة على اجتذاب الجميلات الى عالمــه العجيب ، ولتمكنه من اللغة حيث يسير الكلمات الى مفاهيم تضر بالتكوين المعايش للمدينة ، خاصة هيئة الكهنة •

ارتجف وأخبرها أنه يرفض أن يكون سارقا وأن يظل فى الظلام يحبها ، انما خلق لها وهى الجميلة المحبة الرائعة الناصعة وأنهم كلهم أغبياء وأن عليه أن يتحداهم ولابد له من الكسب أو الاستشهاد • أفهمته أن هــذه حماقة وغرور وأنى له بهذه الأفعــال وهو الذى لا قبل له الا بالرضــوخ وأنه يجب أن يحمد الأمور ويرضى بلقائها خلسة بعيدا عن عيونهم •

٢

« فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته انى أقوم وأطوف فى المدينة . فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته . وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسى » .

(نشيد الانشاد) .

فى هذه الليلة غاب . لم يأت . خرجت ولما نسيت نفسها سألت الحراس عنه .. أدركوا فى التو أنه المقصود بالنبذ . هو ذلك ذو الرأس الذهبية . لكنهم لم يحسوا الأمور ، ولم يعتقلوها ، أعطوها ظهورهم ونظروا الى بعضهم فى صمت .. غابوا جميعا فى جنح الليل . جرت جرت جرت حتى لهثت وجلست قبالة الشاطىء الذى وجدته عنده ، وكان يملأ الشباك بالسمك وعرقه يغطيه فقبلته وأنبأته أنها خافت عليه وسألت عنه حراس المدينة وفهموا أنه هو ، لكن لم يجزموا بهذا ، لكن ما دامت قد أصابتهم الريبة فان عليهما أن يلتقيا فقط سرا زيادة فى الحيطة والحذر .

كان يستمع الى كلماتها فى شرود وتجهم وصدئت رأسه الذهبية وألفى نفسه مقهورا مطاردا وأن عليه أن يتخذ موقفا من كل هذه التحديات .

يقابلها بين الحين والحين وفى كل لقاء كانا ينسـيان الناس والحراس والكهنة وفى صدق شديد تبادلا الحب كأجل ما يكون وهى نائمة على ذراعيه ، نظرت وهى تنفطر حزنا .

ـ ليتك كأخ لى الراضع ثدى أمى فأجدك فى الخـارج وأقبلك فلا يخزوننى .

رنت على ظهرها كما لو كانت طفلته وشرع يهدهـدها وهى تبكى من الفرح ثم قالت فى وجد :

ـ اجعلنى كخاتم على قلبك . كخـاتم على ساعدك لأن المحبة قوية كالموت .

أخبرها أنه لفرط سـعادته يفكر فى الانتحار خشـية من الأحداث لكنها نهرته عن هـذا العبث فارتج وانخلع قلبه ألفى نفسه غائبا عن الوجود .

همست فى أذنه مع شعاعات القمر الفضية الداخلة من الكوة اليهـا :

ـ تعال يا حبيبى لنخرج الى الحقل . ولنبت فى القرى . لنبكر الى الكروم لننظر هل أزهر الكرم . هل نور الرمان .

ولمـا أزاح عن عينيه غمامة حجبت عنه الرؤى للحظـات . ارتعش . وقال انه يخاف أن يراهما أحد من الحراس أو الكهنة .

لثم يدها وعد أناملهـا لا نهاية من المرات • وتحسس دقائقها العظيمة وشرع يغنى لها وتغنى له لكنها مرة أخرى أعـادت له طلبها بضرورة الخروج لرؤية الكروم والرمان • أخذها من يدها وتراقصا على ضوء القمر المنساب فى أروقة المدينة الهادئة والتى لم تكن قد لوثتها بعد أحذية الحراس •

٣

امتدت أيديهمـا نحو الكروم وظلا يأكلانه ، والى الرمان وظلا يقطفانه وشبعا ونسيا نفسيهما فنعسا تحت ظل الأشجار ، كانت النسائم الباردة تلطف من حرارتهما وتهدىء من توهجهما فلقد كانا يشتعلان بألق نادر عجيب وكانت رأسـه الذهبيـة تغيب فى شعراتها الطويلات وكانا يتعانقان فى حب شديد •

وجدهما الحراس أثناء الطواف فلم يعيروهمـا اهتماما ، لكنهم أخذوها وهى غائبة عن الوعى بفعل خمر الأزهار والكروم والرمان • ضربوها وجرحوها وكان حفظـة الأسرار قد رفعوا ازارها عنها وحبسوها فى سجن بارد •

كانت البنات فى الصباح يبحثن عنها • ولم يجدنها • كلهن يحببنها ، وغنين فى تساؤل ، أين المشرقة مثل الصـباح ؟ أين الجميلة كالقمر ؟ أين الطاهرة كالشمس ؟ أين هى المرهوبة كجيش بألويـة ؟؟

نظرت اليهم من كوة السجن وكانت شديدة الحسرة بعدما استفاقت وبكت بحرقة فسألتها :

أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة ؟ أين يوجد فنطلبه معك ؟ • لم تجب • وظلت تنتحب وتنتحب حتى غابت عن الوعى ولما استفاقت نظرت من الكوة فتفزعت وصرخت فى عنف وهلع واربد وجهها وتجهم حين أبصرت أنثى غراب يفح صوتها فى جدران السجن • أخبرتها أنها تحمل لها رسالة من مجلس الكهنة الأعلى وأن عليها أن تعى ما بداخلها جيدا وأن تتخذ موقفا صريحا ازاء مابها •

فضت الرسالة السوداء وشرعت تقرؤها فى خوف شديد •

« نظرا لارتباطك وضبطك متواجدة مع ذى الرأس الذهبية ؛ وحيث أنه لا يدين بديننا ولا دعوة لنا بادعائه أنه بدون اله لكننا نعرف جيدا أنه ساحر له عوالمه الخاصة وأنه يسمم أفكار الناس • ونظرا لأننا لا نستطيع حبسه أو قتله أو حتى الاضرار به لاعتماده على قوة أخرى هائلة تدين باله آخر وحيث أنه من الممكن أن يخلع عن الجميع أثوابهم ويلبسهم حقائقه التى يدعيها وحيث أن هويته غريبة لا توضح موطنه ونظرا لأنه من أنصار التحرر من الوصايا الدينية وفى هذا كفر واضح ؛ لكل هذا ننذرك يا ابنتنا ان لم تكفى عنه فسنضطر الى ذبحك ولن يضيرنا شيء فقط يؤلمنا أن عبدتنا تذهب ضحية للشرير » •

وانبثقت عيناها عن دماء كثيرة غزيرة أغرقت كل حروف الرسالة وظلت تفكر وتفكر ووعدت بالجواب فى الغد وأخذت أنثى الغراب الرسالة واختفت عن بصرها •

٤

كانوا قد فتحوا لها باب السجن ومضوا عن طريقها ، وكانت ترتجف بشدة وتتخبط فى الحوائط وثمة أصوات منفرة تتناهى اليها تزيد من فزعها • ظلت تسير وتسير حتى لاقته وكان بادى الفرح غير أنه حين رآها أحس بالخوف ولهث وغامت عيناها وسألها فى ذعر :

هل حدث شيء ؟ لم غبت ؟

فى اختصار حكت له ما حدث وكأنه كان يعد للأمر حساباته فأخبرها فى الحال أنها لن تلقاه بعدئذ وأنها رضوخا لأمر المدينة التى تطعمها واذعانا لأوامر الكهنة المرعبة ولأنه قبل كل ذلك يرفض أن تذبح وهى الرائعـة التى نفضـت عنـه أحـزان ! وأحالت له الأسماك الجبس حية وضمت الى رؤاه كل الحنان والحب والأزاهير والاطيار •

انحنى وقبل يدها فأطرقت وتجمدت • وألقى بنظرة سريعة على أسطح الدور وما يتصاعد اليها من عفن تحتى ممتزج بأنفاس أهل المدينة وبقرقعة أسلحة الحراس وبأجراس الكهنة •

مضى يجر قدميه المتثاقلتين وراسه منكسة لم تعد ذهبية . ويداه أصابتهما رعشة مؤلمة ولما انتهى أسند رأسه على ركبتيه وهمس للبحر وهو يهدر :

« الزهور ظهرت فى الأرض . بلغ أوان القضب وصوت اليمامة سمع فى أرضنا . التينة أخرجت فجها وقعال الكروم تفوح رائحتها . قومى يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى يا حمامتى فى مخابىء الصخر فى ستر المعاقل أرينى وجهك أسمعينى صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل » .

أجابه صخب الموج وهدير البحر وسخط رفاقه من بعيد وهم يرمون بالشباك الى الغور .

رمى بشباكه وهو يرتعش وجذبها وهو ينتفض وألفى الأسماك الجبس فشرع يقضمها ويقضمها حتى سقطت أسنانه سويا وامتلأ فمه بالدم فانحنى يغترف الموج ويشربه حتى ظل ويتقيأ الى أن تقيأ كل سوائله فألفى الدماء تنبثق من حلقه وتصبغ البحر كله بالدم وتصبغ حتى كل رمال وصخور الشاطىء فانبطح على بطنه وظل هكذا لفترة طويلة يتقيأ دماءه حتى مات .

٥

جروه فرحين جذلى حتى المدينة ودون أن يمسوه بالأيدى وضعوه أمام بناية مجلس الكهنة فخرجوا وهم يتمسون فى خشية والحراس حوله يتحلقونه فى غبطة ، وأنثى الغراب تحلق وتهيم حول الجثة مصـــدرة صوتا ناعقا زاعقا مفزعا يتجاوب وكلمات رئيس الكهنة :

ــ لم نمسه • لم نقربه ••

هو الذى انتحر •

هموم الخطوة الأولى

« فى هذه اللحظة من تاريخ الأرض هبط صدرها وعلا ، اضطرب تنفسها ، تقلصت جوانبها •• تفجرت بكل أحزانها » •

ينتفض • يفكر • ينضح جسده بالعرق ، يعدو • ينكفىء • ينهض • يفكر فى ملايين الأشـياء • يدخن بشراهـة • ينصت للسيدة المفكرة وهى تنقل له صـورة الواقع القاتم والعنيد ، يلتفت اليها فى جرأة ويقول :

ـ مهلا لن أيأس • أو بمعنى أدق ، لن نيأس •

تومىء فى صدق • تهمهم : أعرف •

***

صحب حبيبته ، سألها عن سر الجهمة التى تعلو وجههـا : قـالت :

ـ أرى أن علاقتنا لن تستمر أنت لا تحرص على مشاعرى الأفضل أن نصير صديقين فحسب !

تأملها • اغرورقت عيناه بدمع عصى •

قـالت :

ـ دموعى تهبط فوق قلبك كالمـاء البارد ، حدق فيهـا

ثم عقب :

ـ أحس بها كماء النار •

ابتسمت فى سخريـة واردفت :

ـ أنت تكذب •

سارا سـويا فى الطريق الذى خضبته علامـات كثيرة على محطة الأتوبيس سألته مبتسمة :

ـ أتغضب منى لأنى • بحت لك بذات صدرى ؟ !

ـ والام الغضب ؟

ـ اذن •• لمـاذا تتجهم ؟ !

ـ لا أعـرف ••

ما متجـاورين فى الأتوبيس • سألته :

ـ متى سألقاك ثانية ؟ !

ـ بأيـة صفـة !

ـ كصديق !

ـ بعد أسبوع •

ـ أطرقت تأملته هنيهة ثم قالت :

ـ أتود محو علاقتنا تدريجيا •

ـ لم • أنا لا أعرف اللون الرمادى •• الحلول الوسط لا مكان لها ، سواء فى القضية الوطنية أو الشخصية فهما لا ينفصلان •

تفجرت المرارة فى حلقه فجأة ، واستشعر ألما حادا فى صدره • بين الضلوع وبعرض الرئتين • صافحها سريعا محتدا اتجه عبر الركاب الى باب النزول • هبط • وغرق فى لجج البشر بشوارع شبرا •

فتح كتابا عن السينما كان ينوى اهداءه اليها • قرأ خطه على الصفحة الأولى « الى الانسانة القديرة وهى تخطو بخطى ثابته نحو الفكر الانسانى والمعرفة الجادة •• الى « ••• » بكل ما تحمل من معان » •

تضخم صدى صوتها فى أذنيه •• تقعر صيواناهما وافرزا صديدا مؤلما ساخنا •

« ان اعتراض أبيك على هو اعتراض على طبقتى انه يرى أنها طبقة منحدرة أما اعتراض أمى عليك فهو لأنها لا تأمن

لطبقتك لأنها طبقة مخادعة متقلبة الأهواء تنساق خلف تطلعاتها دون أدنى اهتمام بالمشاعر الانسانية » أسقط فى يده ازداد حلقه مرارة • ابتلع عددا من الأقراص ، أخـذ حقيبته توجـه الى العيادة ، رقدت المريضـة بكت ، رفضت حين سيطر عليها الخوف أن يفتح لها خراج ثديها •• أمسـكت بها جارتهـا •• وعمـل بمبضعه الدقيق فتحة فى ثديها المتورم ، وشرع يصفى الصديد والدم واللبن •

... من بين دموعها سألته :

ــ وممم سيرضع طفلى •

ــ صـناعيا •

ــ الا يمكن من ثدى واحدا ؟ !

ــ مستحيل •

أطرقت ، ثم مضت مستسلمة تسند ثديها المفتوح بيدها •

***

وحيدا فى بيته الا من رائحة البشر أو أصـواتهم أو أطيافهم بكى كثيرا بدون دموع ، تذكر أنه قـال لها :

« سأظل على صلة قوية بكن كلكن ، اننى أقدس مهنـة التمريض وأرى فيكن صفوة ممتازة وفصيلا رائعا مخلصـا فى عمله ، ينمى نفسه بالقراءة وسيغدو شيئا قادرا على التضحية » •

تذكر أنها قد ردت عليه « ليس فقط صديقاتى يحببنك لكن كل العاملين بالمستشفى » •

سدر فى البعيد قال وكأنه يتحشرج « كان الآلاف بالجامعة يجبوننى وكنت أتسنى أن أرقد فى قلب احداهن بشكل خـاص ولكننى فشلت » •

حينها صمتت • وتطلعت احـركة القوارب على صفحـة النيــل •

امتزجت فى أواخر الليل أشياء كثيرة ، تجمعت • كاد النوم يسرقه من عالمـه لكنـه سرعان ما انتفض • تحسس شـجيرة الصبار فى حلقه •• رتب مجموعة من المجـلات والكتب التى سيهديها اليهن فى الغد •

أخـذ بين يديه كتـاب « صفحات مجهولة من التـاريخ المصرى » توهجت الحجرة فجأة • التمعت فى الأركان قناديل فسفورية هوت قبضته على صدر مكتبه فى قوة ، عندما افترشت كلمات الصديق ذاكرته •

« نحن منتشرون كالنسل •• لكن يعوزنا أن نتوحد » •

قبل أن ينام • سجل جدول أعمال الغد : قرر أن يناقش معها أمورا عديدة • أهمها بالطبع لمـاذا نبتت شجيرة الصـبار فى حلقه » •

الوحمة والمدن والقرى

أخذت جسدها بين يدى .. احتويتها .. تحسست ظهرها ولمست يدى الوحمة البارزة .. ارتعش جسدى .. اهتز .. رفعت عينى الى عينها . حدقت فيهما .. ألغيت آلاف الأشياء .. مغارات الجبل حيث يرقد الروح مع نفرتيتى واخناتون .. الجزيرة والطيور المهاجرة .. المركب والنيل والأسماك .. طرحت شفتى فوق شفتها .. قبلتها بنهم .. اعتصرتها ، وضغطت بشدة على الوحمة بظهرها .

***

ـ علمتنى أشياء كثيرة . لكنك بالطبع تغيرت منذ أن زاد خلك .. الله يرحم مستوصف روض الفرج وحقيبتك الثقيلة .. وزرعك للطريق ذهابا وايابا ..

ـ معى موعد مع فتيات « دير مواس » •• يقال انهن أعضاء بمنظمة الشباب وسأحادثهن قليلا •

ـ أنا لا أكره الريف • بل على العكس •• لكن من حقى أن أعمل وأن أتطلع للحصول على شهادة تخصص •

ـ هذا عام المرأة العالمى •• ومعظم نساء قريتنا حبالى •• كلهن يعانين من الضعف العام وفقر الدم •

ـ أو من حتى النخاع بنبض الكلمات الحية •• أؤمن بالاشتراكية •• لكن أخشى السجن ومواجهة السلطة •• بالطبع أخشى عليك •

***

فى صالة الانتظار بمكتب المدير العام •• ألقى السكرتير برأسه الى الخلف محدقا فى الحاضرين ، مجاوبا على استفساراتهم :

ـ أيوه •• الشيوعيون هم اللى نجحوا فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى المركز •• أيوه اليساريين •• ران الصمت لمدة دقائق •

بمكتب أمين عام المحافظة ونائب مجلس الشعب بها ••
وبحضور رؤساء لجان الفرز ، نظر بعض الموجودين الى البعض الآخر حينما قال أحدهم :

ـ لقد استفاد بعض المرشحين من تجربة ايطاليا •• الحزام الأحمر !!

شربت القهوة فى هدوء •

***

اجتماع مجلس ادارة جمعية الهلال الأحمر •• فى نهاية مسر فخم • بعض المرضى يترددون على حجرات الكشف • رائحة العلاج الخاص تفوح بذكاء •

ـ سيادة المدير العام !! الوحدة الريفية خالية تماما من الدواء • حتى مصل العقرب !

ـ نعطيك مصل العقرب •

ـ فقط !!

ـ تحدث فى هذا مع مديرك المباشر ••

كانت خلفية الحوار مناقشة ساخنة حول انتخابات الاتحاد الاشتراكى تقودها سيدة :

ـ ده أصله شيوعى •• ذكى •• عرف يتصرف •

ـ نظرت اليها من طرف تقاريرى للمدير العام •

كانت تبادلنى النظر دون معرفة سابقة ـ وأعادت كلماتها على مسامعى مرة أخرى •

نظر المدير العام الى « دبابة الخطوبة » فى يدى وابتسم •

***

جمع الشباب يملأ حجرة العيادة الخارجية •

جلست على مكتبى أقرأ عليهم رسـالة فـلاح من عزبة أبو عساكر ، يتحدث عن تعديل قانون الاصلاح الزراعى لصـالح كبار المـلاك •

قـال أحدهم:

ـ الانتخابات فى القرى تتم بشـكل فوقى ، ينجح من سيعمل بوحى الكبار •

ـ قرأت هذا فى مجلة «روزاليوسف » •

ـ كنت أخبر العاملين بالوحدة ، أننى قد اتخذت بالفعل موقفا ضد أحد كبار الملاك بالقرية ، ولا يعنى هـذا بالضرورة انحيازى للجانب الآخروهنا عقب التومرجى : « لا يا بيه احنا حبايب الكل وأصحاب الكل •• احنا الصحة » •

ـ واستكملت : وبالطبع لم أحاول افهامه شىء •• خمس

وعشرون سنة من الكذب والدجل والروتين والتهليب وتحيير القرش .. كيف تقنعه .. أنـا رجل ذو موقف . لست متعادلا ولا متصالحا .. لى لون محدد .

حملقوا فى وانتظروا أن أسترسل .

***

فى حجرة مكتبى تعلقت أعينهم بالكتب ولوحـات الـدم وصور الحمام فى الكفن .

صدى « جيفارا » طفل فلاح عزبة أبو عساكر والذى مات من المرض لعـدم توفـر العـلاج أو المـال . الذرة كبرت واخضوضرت الأرض .

بعض تلاميذ المدرسة تخلفوا عن الحضور لوزنهم وقياس طولهم بسبب اشتراكهم فى جمع لطع الدودة . قلت لهم بصدق :

ـــ ليس هناك معنى لنظرية « الغزو من الداخل » .. اطار منظمة الشباب اطار فوقى والرضاء بدخوله خطـأ .

ـــ سأل مأذون القرية : هل منظمة الشباب تملك قوة الردع ضد من يقفون تجـاه مشاريع اصلاح القرية وردم البرك بها .

ـــ رد أحدهم لا ولكن انتظر .. فى ظرف ستة أشـهر ستقوم الأحزاب وتتكون الميليشيا ..

ـ ابتسمتقمت الى حجرة الكشف لأرى مريضا تساقط كل جلد جسمه ..

تذكرت الوحمة والمدن والقرى والارتعاشة .. وكلمات فتحى العامل الطب عندما هز رجليه على الركوبة التى نركبهـا سويا مشيرا الى رجل أسمر .

ـ المهم أن ده اللى فاز من حزبنا ، لأن عنده بندقيـة ألمـانى تسع طلجات أتوماتيـكى .

قمـــر الفـــلاحين

فى تلك الليلة بزغ القمر يفرش ضوءه الشاحب فوق الجزيرة وسط النيل ، وفوق القرى المتناثرة على الضفة الشرقية للنهر ، قرب معـــابد نفرتيتى واخناتون وماكينـــة ضخ المياه الأهليـــة الوحيـــدة .

يفرش ضوءه الحزين فوق الخضرة والطين والرمـــال .. والصخر والبيوت الواطية .. فوق الوجوه الكالحـــة المصفرة وقطعان المـــاعز العجفـــاء الرابضـــة كعلامـــة على الطريق .. فوق المواشى والطيور والأطفال والكلاب الضالة .. والبنادق ، والنسوة والبنات والصبيان .. وهمس أعواد الذرة فى حوارها الأصم مع ريح الجبل الصيفية .

يفرش ضـــوءه المريض بأتجـــاه الاتساع الجنوبى للقرية والكائن بين الجمعيـــة الزراعية والوحدة الصحيـــة . البنايتان

الوحيدتان المبنيتان بالطوب الأحمر والطــلاء الجيرى •• فقط نقطة البوليس تشاركهما هذه الميزة •

فى زية الكاكى المعفر بغبار قطــار الصعيد القــاسى توقف أمامى قــائلا :

ــ شــوف يا دكتور •• أنــا عارف أن الطريق للجزيرة وعرة ولكن أختى تعبانه •• معى تصريح بـ ٢٤ ساعة • أخذته بالعافية من البيك الضابط ••• مسكن ترافقنى ؟ !

ــ •••••••

ــ ما تحمل هم يا دكتور • الحمارة موجودة تركبها لحد البحر وهناك نكمل ••

امتطيت ظهر الحمارة ، تلفحنى نسمات الصيف الباردة • كان (ابراهيم) يقود الحمــارة من الأمــام • يتقافز بحــذائه العسكرى الضخم • يضربها على عنقها تارة ، ويلكزها فى مؤخرتها تارة أخرى • يتبعه زوج أخته وأخوه حافيين ، تغوص أقدامهما فى الوحل ، فتعطى فورتها لبرودة الطين ، يتناثر رذاذ مياه الرى على سيقان الحمارة •• فتجرى •

عند النهر توقفت الحمــارة ونادى ابراهيم من الفضــاء الحــالك الظلمــة :

ــ عم عبد البديع •• عم عبد البديع !!

من قلب الجزيرة المنحوتة من الظلام يندفع صـــوت واهن يرد بالايجاب • دون أن ترى ــ تضرب صفحة النهر مجاديف القارب مندفعة من الصمت ••• حتى الضفة الأخرى يقف عم عبد البديع • قصير القامة • مهلهل الثياب • حافى القدمين • يجرى الى مصافحا • نركب القارب جميعا • بالحسارة الساكنة • ولكن يأبى القارب أن يسير •

وغطس الرجل بملابســه تحت القارب وكان ظهره تحته مباشرة • عبر النهر وبعرضه ، مشى على القاع القريب غائصـــا تتلألأ قطرات النهر من وجهه •• تلمع من وجه القمر الصامت •

ــ التعب يهون يا طبيب • لكن المهم يشفى المريض !

ومضى ركبنا وســط منحدرات الجزيرة الطينيـــة • فوق القنوات والجداول • يحكى ابراهيم عن المعسكر وطبيب الوحدة العســـكرية والشمس الحامية الوطـــأة • التعيين الغـــذائى •• والتدريب •

❊❊❊

عند كوخ من البوص ، قائم فى نهاية الأرض المزروعة وسط النهر ، وعند بداية المنطقة الرملية التى تشبه الى حد كبير شواطىء المصيف •

راقدة على ظهرها على الأرض •

في غيبوبة الحمى المرتفعة جدا .

تفيق للحظـات .

تعى من حولها وتنادى بلهفـة :

ــ خوى .. براهيم .. متى جيت ؟ !

لم يرد وانما نظر الى .

المرأة الراقدة تنفصد عرقا .

ترفض أن أكشف عنها بمنطقة الولادة .

تسأل الاذن من أخيها .

زوجها مسلوب التعبير . واجم . صامت .

العرق أحمر بلون الطمى .

ولدت أول أمس .

ولدتها القابلة القانونية (تفيدة) . قالت ان الوليد كان وضعه سيئا وان ثمة جروحا نجمت عن الولادة داوتهـا تفيدة بتراب الفرن .

تشحب الوالدة مع بطء تنفسها اللاهث .

تندرج رؤى النهر والقتال والقمر والحمارة والزرع الأخضر فى لحظـة أمل .

تراب الفرن .

تصريح الجيش .

(حمى نفاس وتقيح تناسلى حاد)

ينظر الى الزوج وابراهيم . يتصببان عرقا . يرتعشان . يسألان فى صـوت واحد :

هتعيش !

ربنـا يسهل .

يجفف ابراهيم عرقـه . ... فى أخته ويتمتم :

ــ اذا تخلفت عن موعد التصريح . فلن ترحمنى الشرطة العسكرية .

***

بعد اسعاف (أم الخير) جلسنا فوق طبلية العشاء على حافة النهر . قـال الأب العجوز مبتسما :

فى الصيف يجىء (كمال بك) ل هنا مع زوجته اللى بتقرف م الفلاحين ، ومعاهم شمسية ومسجل وأغانى ..

ن الشاى الأسود فى صمت .

ثرت قطع الطين الأحمر على سيقان الحمارة .

انحنى ظهر عم عبد البديع وهو يغوص [illegible] ما فيه فوق ظهره .

قامت أم الخير وليدها لتسجل اسمها برعاية الأمومة والطفولة بالوحدة الصحية . سألت الست سيادة عن سبب حزنها وشحوبها فردت :

ـ زوجى غاب فى الإستدعاء الأخير .

ـ ربنا يستر .

ـ الحرب قامت .

ـ اللحمة تمنها زاد .

ـ الصراف منتظر عند البيك الكبير .

ـ سيد أبو عبد الله شتم الحكومة اليوم ..

ـ فوزى أفندى الميكانيكى الغنى والعمال والخفر عملوا اضراب فى الصحرا لزيادة الأجور . المسكن وقف والأرض عطشانة ...والزرع هيموت ..

***

يجرى من عند الضفة الشرقية للنهر . من فوق ظهر المركب الذى رسنا لتوه . يجرى عبد الرسول مسئول الدفاع المدنى ، وجهه متفضن وملامحه حزينة . يصافح الحاج قائلا :

ـ البقية ف حياتك يا حاج ! ابراهيم مات شهيد ••

يا بوى •• يا خوى ••

وقفت القرية كلها • صغارها وكبارها • رجالها ونساؤها •

العمدة والصول وشيخ الخفر والطبيب وناس من الحكومة ••• ودفنوا جثة ابراهيم •

فى الصباح الباكر مشت النسوة بملابسهن السوداء فى صف طويل طويل ••

ينتحبن ويولولن بنغم مسطوط غير مفهوم ••

يشق الجبل نسنين ••

صلوا صلاة الشهداء •

كبروا وهمهموا •••

••••••••••

دس الأب العجوز شهادة وفاة ولده فى جيبه ملتاعا :

ـ عيلة كمال بك مش هتحضر السنة دى للجزيرة • قالوا [illegible]وا لهم شاليهات السويس •• والسفن كلها عم بتمر •• حتى [illegible]اع •

الملك خوفو ، وديدى ، والعبيد

١

... ومثل ديدى بحضرة **الملك خوفو** ، **فقال جلالته :**

ـ يا ديدى ، كيف لم أر وجهك من قبل ؟

أجـاب ديـدى :

ـ انما نتوجه الى من يدعونا ، وقد دعانى الملك فلبيت .

قـال جلالتـه :

ـ أصحيح ما يقولون من أنك قدير على أن تلصق رأسا فصـل عن الجسد ؟

أجـاب ديـدى :

— أى نعم ، يا مولاك الملك ، فى مقدورى ذلك •

قال جلالته :

— على بسجين تنفذ فيه العقوبة توا •

فاستدرك ديدى وهو يقول :

— حاشا يا مولاى ! أنا لا أجرب سحرى فى الانسان •
أليس الأخلق بنا أن نجرب مثل هـذا العمل فى العجموات ؟

وأحضروا له أوزة يجرى عليها السحر •

من قصة (خوفو والسحرة)

٢

ولما حضرت الأوزة ظلت تزعق بصوت عال سمعه باقى الأوز ، فزعق الأوز كله بطول الوادى ، وخرجت الفلاحات باكيات ؛ فعلى الرغم من أنهن قد اعتدن ذبح الأوز للاطعام فهم لم يتعودونه للسحر •

انطلقت الفلاحات منتحبات يزعقن عند الفجر ، ويهطلن دموعا من مآقيهن تصب فى مجرى النهر الآسن فيرتفع منسوب النيل ، ويضطرب حامورابى وينزعج الكهنة ويأمر الملك خوفو بضربهن بالسياط •

وعلى الرغم من الضرب المبرح ، فان الزوجات مضين ينتحبن على الأوزة • يسرن فى طابور طويل طويل لا ينتهى الا بانتهاء الوادى • وتوقفن عند مكان بناء الهرم — حيث شرع أزواجهن العبيد — تحت ضرب السياط — يجرون الأحجار الهائلة الحجم • مسوقون يبنون الهرم الأكبر للملك خوفو ؛ وعلى الرغم من أن الأرض بوار وأن الزوجات غير قادرات على الرى والحرث والزرع بمفردهن ، ولأن كل حسابات حامورابى كانت خاطئة ، لأن جابى المحاصيل قد نهب الأجران ••• فلقد جرى الأولاد والبنات حفاة عراة وراء الأمهات ••• يزعقون كالأوز ، ويسبحون كالسمك ، وكانوا ضعاف البنية • صغارا جدا بجانب الأحجار والطلاسم والمعابد والكهان •••

••• ولما دعت الحاجة الى أن يمر موكب الملك ، داست الخيل على الجميع ، وألهبت ظهور الزوجات سياط الحرس الملكى ، وسيق العبيد المتعاطفين مع زوجاتهم الى السجون ••• كانت أقبية رطبة زنخة الرائحة • كان الدم والقىء والبصاق يملأ المكان ••• غير أن كوة أتاحت شعاعا من الضوء ، فأصاخوا جميعهم السمع • أنصتوا بكل دقة • تقلصت آذانهم وتقعر صيوانها للخلف • همهموا ، فاضطرب الحرس المشرع الحراب ، وتململ الحرس الملكى • وحزن خوفو حزنا شديدا حيث توقف العمل فى بناء هرمه •

٣

وما كان من الملك خوفو الا أن أرسل رسله وحرسه الى مصر العليا ، يجمعون العبيد الجدد بالسلاسل . يلهبون ظهورهم بالسياط .

وكانوا يعملون فى الأحجار لبناء الهرم تاركين خلفهم الأرض بوار ...

... وحدث أن جرت خلفهم باقى الزوجات ، وصرخ عباد الشمس فى وجه الشمس : يا شمس يا كافرة ! وصرخ الأولاد والبنات الحفاة العراة : أيتها الآلهة نسبك ونسب أبوك وأمك وكل من هم حولك فما أنت الا بغى مقنعة ... كما أنهم شرعوا يتناقلون النكات وهم يصطادون السمك وتصطادهم التماسيح : نكات عن الملك خوفو وحامورابى وديدى والأوزة . وحكايات عن العبيد والآباء والهرم . عن الأعمام المساجين والزوجات والأمهات وجباة المحاصيل والأرض البوار .

... ولما سمع الملك خوفو بما حدث صلى فى المعبد كثيرا ، ورأى فى منامه حلما مفزعا ، فاستدعى اليه كبير الكهان وأخبره بما رأى ، فما كان من رئيس الكهان الا أن انحنى وهمهم فى صوت خفيض :

— لا تنزعج يا مولاى ، انها أضغاث أحلام .

... ولما لم يطمئن الملك خوفو لاجابة رئيس الكهان ، راح يقضم أظافره بأسنانه ويمسح عرقه الغزير ، غير أنه انشرح عندما علم بأن الهرم الأكبر قد تم بناؤه .

٤

تفزع الملك خوفو من نومه . أدرك هذه المرة أن الأمر ليس حلما . ألفى آلاف العبيد محتشدين وآلاف المساجين مجتمعين ، كما أن البوابة الملكية والردهة والبلاط كانتا مكتظتين بالرعاع . بالأولاد والبنات الحفاة العراة . برائحة الأرض البوار بحسابات حامورابى الخاطئة . برائحة الصخر ...

وكان الحرس الملكى بعضه مرتديا لباس العبيد والبعض الآخر مقتولا . وجباة المحاصيل مدهوسون تحت الأقدام المتشققة . الآلهة صماء . الشمس بكماء . الآلهة بغى مقنعة . الكوة بظهر السجن اتسعت . واتسعت وصارت فى حجم البوابة الملكية والردهة الملكية والهرم الأكبر ...

اندفعت الملايين تشق صدر الوادى ، تسمع فى الأفق زعيق الأوز ، واصطاد الأولاد والبنات السمك ولم يصطادهم التمساح .

وصاح زعيم العبيد . زعيم المساجين والعرق يغطيه وعيناه وأهدابه مغطاة بالجير .

صاح فى الملك خوفو : انهض .

... ونهض الملك خوفو ، وهو لم يزل يتمنى أن تكون أضغاث أحلام . نظر الى يمينه فألفى رئيس الكهان سابحا فى دمه ، والتفت الى يساره فألفى ديدى يعالج رأس الأوزة .

فصرخ فيه : يا ديدى . أنت سبب البلاء .

لماذا لم تصلح رأس الأوزة منذ ساعتها !

تبادل ديدى ورئيس العبيد ورئيس المساجين نظرة ذات مغزى ، وابتسامة صافية آشرقت من عرق العيال والبنات والنسوة ، وقال ديدى فى هدوء كبير :

ـ مولاى . حاشا يا مولاى . أنا أجرب سحرى فى الضعفاء . أليس الأخلق بنا أن نجرب مثل هذا العمل فى الأقوياء .

فانبجس الدم فى عينى خوفو للأبد .

الموال السجن والسجان

١

توقف الشاويش عبد الموجود بعد تفكير طويل أمام باب الزنزانة .. زنزانة الولد الطالب الانفرادية ... تطلع الى وجه الولد ... كان قد ضاق بما يفكر فيه .. كان كل شيء قد انعكس على حياته الخاصة ، فهو ينهر امرأته بسبب ومن دون سبب . وصار يعكر دم الأولاد بمبرر وبلا ... وصار يتحاشى رجال الحارة عن عمد .. هم يعرفون أنه شاويش عنبر المساجين السياسيين ، وأن العين عليه . وأنه ربما يعرف أسرار الحكومة وفضائحها من هؤلاء ... لكنهم عذروه على أي حال . فهم يحبونه !

لكن .. لماذا يتحاشاهم الآن ؟ لماذا هو شارد ... ومهموم ؟

حاروا جميعهم وتساءلوا ...

لكن ما تجاسر أحدهم على توجيه السؤال اليه ... حتى امرأته خشيت مغبة السؤال ، فلربما « خاوته جنية » . خصوصا أن ثمة خلافا حديثا قد دب بينها وبين جارتها أم اسماعيل ، وأنها تكن لها من العداء ما يكفى للقيام بعمل مثل هذا وأكثر ...

ان الرجل قد تغير تماما .. لدرجة أنه أصبح لا يقرب امرأته على الرغم من أن فراشا واحدا يضمهما .

٢

تردد الشاويش عبد الموجود كثيرا . تمهل . أسرع الخطى .. تباطأ . دخن بشراهة . توقف . تأمل . صرف الفكرة عن ذهنه . عاد يفكر ... وفجأة . ثمة احساس داخلى قوى دفعه لأن يتوقف أمام زنزانة الولد الطالب المتغنى بموال كل ليلة . الموال السبب الموال الذى تردد عبر ردهات السجن وطاف بها وصار على شفاه كل المساجين ... حتى المخدرات والاختلاسات ...

توقف أمام الزنزانـة • وتطلع الى الولد الطـالب ، وقال له بشجاعـة :

ــ أنـا مش خايف منك •

كان ذلك للحظة • توقف فيها نبض عبد الموجود • وتوقف تنفسه • وانتظر اللحظة التالية وكأن دهرا يفصل فيما بينهما •

ابتسم الولد الطالب فى اشراقة كالفجر •

تهلل وجهـه الوضىء المقسم بقبضان الزنزانة الى مربعات • وقـال :

ــ ما أنـا عارف يا عبد الموجود •••

أنـا مش قصـدى أنت •

••• لأول مرة ، يناديه مسجون باسمه هكذا مباشرة • من دون لقب الشـاويش الأزلى المرتبط به • أى مسجون لم يكن ليجرؤ على هذه الفعلة • حتى لو كان مجرما خطرا • تخشاه الحكومة • فما بال هـذا الولد الطالب يفعلها ••• كاد ينبهه الى هول هذه الفعلة لكنه صمت ، وفكر فى من يكون المقصود •••

٣

عاد عبد الموجود فى هذه الليلة أكثر اصرارا • ولمـا بدأ

الموال يتردد عبر الزنزانات توقف أمـام زنزانة الولد الطالب وصاح فى غضب :

ـ اسمع ... أنـا مش ملعون !

افتر ثغر الولد الطـالب ، كمـا لو كان ثمرة تين شـوكى تفتحت قشرتها للتو ، وبدت ثمرتها الداخليـة ناضجة حاوة ، بدأ وجهه أبيض ـ كاللبن ... رد فى هدوء :

ـ ما أنـا عارف يا عبد الموجود ...

أنـا مش قصـدى أنت ...

يـوه !

فى كل مرة ليس قصده أنـا .. ومن يكون غيرى حارس السجن ... هـذا زائد انه قد كرر مناداته لى باسمى مباشرة ، وكأنه صاحب قديم ، وكأنه أخ ، وكأنه ...

٤

فى الليلة الثالثة ، كان عبد الموجود شبه متيقن من أنالولد الطالب لن يستطيع الرد ... وبالتـالى ، ستنتهى المشـكلة المؤرقـة ... تقدم الى باب الزنزانة وتطلع اليه قبل أن يبـدأ الموال مباشرة وقال :

ـ أيوه ... أيوه أنت ..

أنت ما انتش شمشون ...

فى هذه المرة ، ضحك الولد الطالب عاليا . عاليا جدا ... حتى اغرورقت عيناه بالدموع . فاضتا بندى الصباح ... وبدتا كبحيرتين مالحتين على ضفة القناة .

ـ فعلا ، يا عبد الموجود ، أنـا مش شمشون . ولا عمرى كنت .آديك شايف عودى الرقيق .. لكن هم بيفتكروا كده ..

هم ... من هم ... ولماذا يعتقدون ذلك ؟ تعقد الأمر أكثر . وصار عبد الموجود أكثر اضطرابا . اقترب أكثر من الزنزانة ، وسأل الولد الطالب :

ـ طب وايه حكاية الحيطان اللى ما فيش بينها قش ، واللا السلاسل اللى ما هيش ورق دى ؟ بدت يدا الولد الطالب القابضتين على قضبان نافذة الزنزانة كوردتين متفتحتين تضوعان بعطر نافذ ...

ـ أيوه يا عبد الموجود . الحيطان حيطان . والسلاسل سلاسل . ما بتتغيرش . ما يغيرهاش الا البنى آدم المهضوم حقه . المظلوم . ما يغيرهاش الا القادر على تغيير نفسه .

يا سبحان الله . الولد الطالب يقول الحقيقة التى أدركها عبد الموجود بحواسه ... وكان بانتظار سماعها .

كان يستغرب كل شيء .

كان يستغرب لقمة العيش المرة والأيـام المرة . والسنين الصعبة والسكوت الصعب .

... لكنه لم ينطق بحرف !

٥

استـدعى البيك المـأمور الشـاويش عبد الموجود الى مكتبـه .

كان عبد الموجود يعرف السبب .

أدى التحية منتصبا كحرف الألف .

صرخ فيه المـأمور مدير السجن :

— أنت مجنون ! بتتناقش مع الطلبة ... بتعمل حوار معاهم . بتسألهم وبيجاوبوك ؟

— انى كنت بس باستفسر !

— تستفسر عن ايه حمار (وجعته الكلمة . وجعته جدا .. مهما كان مأمورا وبيك الا أنه يظل فى عمر ابنه الأكبر)

واسترسل البيك المـأمور :

ـ أنت ميش عارف أنهم مرة بعد مرة ممكن يخلوك يسارى !

انتفض جسد عبد الموجود . ارتعش . همهم قائلا : أستغفر الله ، الا أنه كان تواقا لأن يسأل البيك المأمور عن معنى كلمة شيوعى الا أنه كان قد عزم على أمر آخر ...

أمره البيك المأمور بالانصراف ، منذرا اياه بالخصم ثم بالفصل من الوظيفة اذا تكرر ذاك الخطأ .

٦

ولما بدأ الموال يصعد ويصعد . يصطدم بالقضبان . يخرج من النوافذ ويتعدى الأسوار والأسلاك كطائر جريح . كطائر موعود . كطائر قوى . يقلق مسامع الراقدين فى القصور المتناثرة بقاهرة المعز الحزينة .

« يا حارس السجن

ليه خايف من المسجون !

هى الحيطان اللى بينها قش ... يا ملعون !

واللا السلاسل ورق ...

واللا السجين شمشون !

يا ليل يا عين

يا ليل يا عين »

توجه عبد الموجود فى هذه المرة بخطى ثابتة الى الزنزانة ، سأل الولد الطالب فى حنو شديد عن معنى كلمة يسارى ••• وبعدها • صار يغنى الموال بينه وبين نفسه ••• وعاد مرة أخرى الى الحارة ورجال الحارة •.

عاد الى امرأته ، يضمهـا اليه فى عنف هامسـا فى أذنيها (يا وليه الكلام كويس • لمـا الواحد يفهم الحكاية م البداية تبقى المسألة سهلة) •• لم تفهم المرأة قصده ، غير أنها حمدت ربها على كل شىء • ونامت •

الذهب الأبيض

الى الفـلاح المدرس المصرى الهلالى
السـنوسى خشية ان يحدث هـذا

وقف الأستاذ خير الله أمام السبورة . كتب بالخط الرقعة التاريخ الهجرى على اليمين ، ثم الميلادى على اليسار ، وتحتهما فى الوسط خط بالنسخ الكبير كلمة « تعبير » . (زراعة القطن فى بلادنا . فوائدها .والمشاكل التى تعترضها) .

جلس التلاميذ بجلابيبهم الباهتة على الأدراج الخشبيـة المتهالكة . شرعوا يكتبون ما تسعفهم به الذاكرة . كان الأستاذ قد سهل عليهم المهمة بوضـع عناصر الموضـوع وانحنى على بعضهم يناقشه فى همس .

انكب التلميذ محمد عبد الحكيم ، الشاحب الوجه الى درجة البياض ، انكب على كراسة التعبير وشرع يخط بخط كالمكتوب به المصحف الشريف (هكذا نصحه الخال عبد القادر) ، انكب يكتب ويكتب مستخدما الأساليب الجميلة والاستعارات والكنايات ، وكل ما التقطه من قراءاته المتعددة لسير الأبطال عنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن وغيرهما . أنهى موضوعه بحرص ، وسلم كراسته للأستاذ .

عاد بخطاه الوئيدة ، بقدميه الحافيتين المشققتين الى درجه المدرسى وانتظر ...

ناداه الأستاذ خير الله . انفرجت أسارير محمد . لهث وهو ينصت بفرح لا نهائى الى كلمات المديح عن موضوعه التعبيرى كأفضل موضوع بالفصل .. خط الأستاذ بقلمه الأحمر علامة التسعة من عشرة وذيلها بعبارة ثناء من سطرين . ربت على ظهر محمد مهنئا . دق الجرس معلنا انتهاء الحصة . طار محمد كالعصفور خارج المدرسة ، يجر قدميه الحافيتين المتشققتين .

... جرى الى الحقل حيث وقف أبوه مستندا على فأسه شامخا فى وجهه الشمس تتلألأ قطرات العرق على وجهه الأسمر يفتر ثغره عن ابتسامة فرح . يلتقط أنفاسه . يتلقف ابنه فى حب غامر . يصحبه بعيدا عن الشمس . تحت الشجرة الكبيرة . يسأله عن أخباره ..

حكى محمد لأبيه عن موضوع التعبير . اخرج له الكراس ، وقـــال :

ـ انظر يابا تسعة من عشرة .. وسطرين تحية وشكر ...
(ورغم أن الأب كان لا يعرف القراءة الا أنه ميز خطوط الأستاذ خير الله الحمراء ورصع بها صـــدره وانتشى) .

فتح المنديل . أخرج الطعام . بدا يتناوله مع ولده . تناول القلة ليشرب . غير انه توقف فجـأة ليساله :

ـ وعن ايه كان الموضوع ؟ !

رد محمد بسرعـة :

ـ عن زراعة القطن يابا .. فوايده ومشاكله (شـــدد الولد على كلمة القطن وركز نظرته على أبيه) .

أنزل الأب القلة . تفصد وجهه بعرق غزير . غص حلقه . حدج ولده بنظرة ملأى بالحزن والألم والغضب ، ندت منه آهة موجوعة وسأل :

ـ ويا ترى رحت الوحدة الصحية اليوم ؟

ـ لأ ..

ـ وليه لأ ..

ـ قلت آجى أقولك الأول ..

ـ طيب امشى روح ..

ترك محمد بقية الطعام . مضى حافيا يجر قدميه المتشققتين الحافيتين . يتعثر فى جلبابه متأبطا كراريسه ميمما شطر الوحدة الصحية .. غير من اتجاهه فجـأة . انعطف الى البيت . دخل على أمه وهى جالسة أمام الفرن . تلفح وجهها حرارة النـار فيبدو مشـتعلا متأججا . يداهـا فى العجين وفى الحطب وفى النـار .

بشت فى وجهه . سألته عن أحواله . أخبرها عن موضوع التعبير . ودون أن تستطرد فى السؤال قال لها انه كان عن زراعة القطن . فوائده ومشاكله .

أطرقت الأم الحزينة ...

ندت عنها آهة موجوعة . رمت بقرص العجين فى حضن الفرن الحـامى . أشاحت بوجهها عن ابنها الذى ترك المكان فى صمت ... ومضى ..

....

فى الطريق الترابية ما بين البيت الطينى والوحـدة الصحية قابل سعاد . زميلته فى الفصـل المدرسى وجارته وقريبته وكل شىء . لاحظ أن عينيها تنزان صديدا ساخنا . سألها :

ـ مالك يا بت يا سعاد !!

ـ عينيا يا محمد . أنـا رايحة الوحدة للدكتور .

ـ وأنا كمان رايح • انما دى عينيك حمرة قوى ووارمه وشكلها كده غريب !

ـ يعنى أعمل ايه يا محمد • نصيب ومقدر •

كان محمد مريضا بالقلب • وبالبلهارسيا • وبالانكلستوما•

كان الدم يتفجر من ماسورة البول ولا يهتم •

وكان قلبه يضرب كالثور الهائج ولا يسأل •

وكان وجهه يشحب لدرجة الموات ولا يعى •

كان يقعى ليستجمع أنفاسه • وكان عاجزا عن اللعب مع أقرانـه •

ـ شفتى اليوم موضوع التعبير اللى كتبته ؟

ـ شفته يا محمد • مبروك • وايه الفايدة • الدودة وأكلت القطن • واللا أنت مش عارف ان المحصول كل سنة بيقل ؟ !

صمت محمد • كان يعرف • لكنـه لم يتوقـع الرد • مر جادا بذاكرته • زاد من تورم قلبه • أحكم وضع الكراسـة تحت ابطه • مضى يجر قدميه الحافيتين المتشققتين • متعثرا فى جلبابه • ينكفىء فى التراب • ينهض • ويمضى فى طريقه •• الى الوحدة الصحية ••

••••••••••

أمام الوحدة الصحية تقع الجمعية الزراعية .

جمع من رجال البلدة يلتفون فى شكل دائرة حول مبنى الجمعية . أمام المدخل الأسمنتى المرتفع عن الأرض . المرشوش بالمياه . يجلس أفندى على كرسى وحيد . أفندى أنيق يلبس نظارة سوداء لامعة . كان يتأنى فى حديثه . وكان يعدل من وضع رابطة العنق بين الحين والحين . عرفه محمد فورا . انه عبد الله أفندى مهندس الارشاد الزراعى . انحشر محمد فى الجمع . أصاخ السمع .

(طبعا أنتم سمعتم الخبر . أنا فى الحقيقة جاى أقولكم ان زراعة القطن خسرتنا كتير قوى . الحكومة قررت زراعة الكرز . الحكاية مش صعبة قوى . هى غريبة شوية . لكن الارشادات الزراعية هتذاع بعد نشرة الأخبار . خمس مرات يوميا . والتفاوى هتوصل قريب مع الخبرا الأجانب) .

انفض الجمع . انغرست بويضة البلهارسيا بحدة فى مثانة محمد عبد الحكيم . انهمر الدم كالبحر . باتت دورتها الذكر ودودتها الانثى ترتع فى كبده . تتناسل وتمتصه . ثبتت ديدان الانكلستوما أسنانها فى أمعائه امتصت دمه بشبق . اختلط دمه ما بين قلبه ورئتيه . اضطرب . أغلق محلج القطن بالمركز . سرح عمال الغزل والنسج فى الشوارع . تورمت عينا سعاد أكثر . سحتا صديدا ملتهبا بحثت أم محمد عن الحطب . لاحت

لوزة القطن فى عينى أبى محمد الدامعتين • بث الراديو الارشادات والأخبار والأغانى والقرآن الكريم •• وعم الفلاحين هم فظيع •

❊❊❊

مضى محمد عبد الحكيم يجرى بقدميه الحافيتين المتشققتين • يهرول • يتعثر فى جلبابه • ينكفىء • ينهض • يجمع كراريسه • ينظر خلفه • قلبه يدق كوابور الطحين • يزداد وجهه شحوبا • يتقطع تنفسه • وراءه سعاد • تزداد عيناها تورما • تسحان صديدا يبلل هدمتها البالية • يدخلان الى مبنى الوحدة الصحية • يناوله العم حسين الاناء • يتبول محمد فيه دما • يكشف الطبيب على سعاد • يناول محمد الاناء العم حسين الشارد النظرة • المتجعد الأسارير • صبت البول الدموى فى الاناء الزجاجى المخروطى استعدادا لتحليله • تبادل نظرة سريعة مع محمد وسعاد الواقفين فى حجرة المعمل انتظارا لأخذ حقن العلاج • أشعل وابور الجاز • غلى فوقه المحقن الزجاجى محدثا قلقلة كسرت الصمت القاتل • من شباك المعمل بدت مساحات الحقول المزروعة بآخر محصول قطن مهجورة • تطلع محمد عبد الحكيم الى وجه العم حسين المهجور من الانفعال • المشحون بالتجاعيد •

سأله : ــ انما قوللى يا عم حسين • شكله ايه الكرز واللا الفراولة دى •• ؟ !

ضحك العم حسين عاليا • صمت • اشار باصبعه الضخم الى اتجاهين محددين وقـال :

ــ ما اعرفش يا بنى • بس سمعت انه فى لون بولك وفى شكل عيون سعاد •

المهمــــة

كانت مديحة تحاول اللحاق بالقطار ، زلت قدمها وسقطت فى حفرة ترابية رملية ، ظلت تغوص وتغوص حتى دفن جسمها كله عدا الرأس ..

صرخت بأعلى صوتها طالبة النجدة .

ولأن القطار كان قد تحرك ، مطلقا صفارته المزعجة محركا ماكينته الضخمة ، حاملا بين جنباته مئات البشر من كل الأشكال والألوان والأعمار ، فان فرص مديحة فى النجاة كانت ضئيلة ، لهذا كفت عن الصراخ .. وبدأت تفكر .. أخذ الرمل الترابى الساخن يضغط على بطنها وفخذيها ناقلا الى أحشائها سخونته الشديدة حاملا الى ضربات قلبها عبئا لا يحتمل ..

تصبب عرقها غزيرا ، امتصه التراب الرملى ولم يرتو ، ازداد تنفسها ، وتحركت الرئتان فى صدرها كوابور الطحين ..

فجأة !! بان فى الأفق مجموعة من الرجال حوالى خمسة ، اقتربوا منها حتى بانت ملامحهم .. أحدهم كان يرتدى قميصا مزركشا وفى فمه سيجار ضخم ، وعلى رأسه قبعة ويرتدى بنطالا قصيرا وصندلا فى قدميه .. الآخرون كانوا يرتدون الكاكى وفى أقدامهم أحذية ضخمة قدم الأول يده وقال :

ـ أنا أحمد .. مهندس مدنى .. أقوم ببناء فندق حديث فى نهاية هـذا الطريق الطويل .. سنساعدك على الخروج من الحفرة شريطة أن تساعدينا ..

تساءلت مديحة فى لهفة .. كيف ؟

بلع أحمد دخان سيجاره ، نفثه فى الهواء ..

قال : أنت فنانة قديرة .. لك ذوق واحساس مرهف .. هاك علبة الألوان ..

وها هى الفرشاة

ما عليك الا أن ترسمى هذا الطريق بلوحات رائعة مختلفة الألوان ..

نظرت مديحة الى الفرشاة الدقيقة الحجم ، زاغ بصرهـا ، ت او تكلمت لكنها فضلت الصمت قائلة :

ـ أوافـق ..

مد الرجال المتحلقون بأحمد أيديهم الغليظة الى مديحة ، شدوها فى قوة ، سمعت صوت احتكاك جسدها بالرمل الترابى ، ارتعشت أحشاؤها .. وتنفست الصعداء ..

تحلق الرجال بأحمد ، ومضوا الى سيارتهم الخفيفة واختفوا فى اتجاه الفندق ..

جلست مديحة تدقق النظر فى الفرشاة الصغيرة وفى علب الألوان مدت بصرها فى اتجاه الطريق الضخم الذى أكلته حرارة الشمس .. كانت تحاول جاهدة أن تقدر مساحته ، أن تحدد حجم المجهود والزمن الذى من الممكن أن تنتهى فيه من مثل هذا العمل ..

قررت أن تبدأ العمل دون تردد .. شرعت ترسم الورود والزهور ، البحيرات والأشجار ، النخيل والقمر والنجوم ، الجبال والصحراء وكافة الأشكال الهندسية ، تشنجت أصابعها على الفرشاة ، تصبب عرقها غزيرا ، أحست بالارهاق وبالعطش..

وما أن مضى اليوم السابع الا ومديحة قد انتهت من مساحة لا تكاد تقدر بالواحد من الألف من مساحة الطريق ، تنبهت الى أنها قد أغفلت رسم البشر والبنايات فى لوحاتها ..

لكن .. هل هناك وقت ؟!

سارت فى اتجاه الفندق ..

ظلت تعدو ، وتعدو ، وتعدو ..

سقطت متعبة عند موقع عمل يتقدمه نموذج ضخم مصنوع من المطاط المنفوخ بالهواء ، على شكل رجل سمين جدا أخرجت من جيبها سكينا وظلت تقطع فيه شهقت قائلة

هـذا بالضبط ما أريد

كانت أمامها ماكينة كبيرة مجهزة بكل شيء ، أماكن لصب الطلاء ، فرش أتوماتيكية ، عقل الكتروني ، ضابط منظفات ، الخ .. ركبت الماكينة ، حركتها في مهارة في اتجاه الطريق الضخم وشرعت تلونه بسرعة فائقة .. حتى انتهت من عملها في ظرف ساعات ..

وقف الناس في شرف الفندق يتأملون الطريق الضخم الملون والذي بدأ على شكل علم كبير سأل أحدهم .. علم أى بلد هـذا ؟

عدل آخر من وضع طاقيته وقـال :

ــ أي ألوان تلك ؟ !

ابتسمت سيدة سمينة قائلة :

ان له رائحة المسك .

وقف أحمد وسط رجاله ينفث دخان سيجاره وهو في قمة غضبه قـائلا :

ـ هذا ليس اتفاقنا ؟ !

ردت مديحـة فى جراة :

وهل يرضى انسان بالموت صبرا وانتظارا ؟

عدل أحمد من قبعته . تبادل النظرات مع رجاله وقال :

ـ سنعيدك الى الحفرة مرة أخرى .. ابتسمت مديحـة وقـالت :

ـ الحفرة غير موجودة !!

لحظتهـا اندفع آلاف الأولاد من على جـانب الطريق ، أخذوا أماكنهم فوقه كما لو كانت مواقع محددة لهم .. تشابكت أيديهم تهدج صوتهم ، وهدلوا بنشيد دوى بقوة شق صـدر السحاب وتغطى بدماء القلب ..

الحلم على موقف الباص !

كنت أتمشى أنا وهى على شاطىء البحر تترقرق مياهه المالحة على الرمل الأبيض فترويه ، تبدو الشمس ساقطة عند خط الأفق فتصبغ السماء والسحاب بلون برتقالى مشرب بالدم .

وكانت طيور النورس تطير وتصيح فى مجموعات وأحيانا فرادى . كنا نسير يدا فى يد كمراهقين حالمين طلعا لتوهما من الطفولة ، كانت ضئيلة الحجم ، ممتلئة بغير سمنة ، وجهها أسمر ، شعرها بلون الذهب تنبعث منه رائحة كالفش الصيف ، كانت ترتدى معطفا أسود فاحم اللون ، كانت مبتلة ، مرتعشة الأطراف ، متهيجة الجوانح ، فى صوتها بحة رجالية ، وفى ضحكتها رعونة تنم عن حزن دفين كانت تفوح منها

رائحة هى مزيج من العطر النسائى الفاضح وعطن المطر والأرض وأوراق الخريف •

توقفت تركت يدى أمسكت بحجر لازوردى اللون • قذفت به الى البحر بكل قوتها وضحكت •

قـالت : انى أحبك لكنـه حب مختلف عن حبى لزوجى يوسف • يوسف بعيد اختار أن يرحل الى المدينـة الكبيرة فى الشمال ليدرس الالكترونيات ، يأتى فى بعض عطـلات نهايـة الأسبوع ، وأحيانا لا يأتى • أيضا حبى لك مختلف عن حبى لطبيبى النفسى ، وعن حبى لأبى وأمى ••

ابتسمت : أمسكت يدها وتأملت أناملها قائلا :

ـ أناملك جميلة ••

قالت : لا أظن •• انها تبدو كأطراف الضفادع ••

تأملتها هنيهة ثم قلت :

ـ لماذا تخفين جسدك خلف هـذا المعطف الأسـود الثقيل الفاحم اللون ••

ـ الدنيا برد •

ـ حتى فى الصيف تلبسينه ••

ـ انى أكره جسدى ••

جلست على الرمال وشرعت تنقب فيها عن شىء ثم بدأت تبنى بيتا وقلعة •

جلست الى جوارها فنظرت الى فى حنان شديد سائلة — هل تفسر الأحلام ؟ !

— أحيانـا ••

كل ليلة أحلم حلمـا متكررا • رأيتنى فى منامى أرتدى معطفا وثيرا من الفرو الأسود الغالى جدا ، أهبط درجات سـلم رخامى من مكان يشبه القصر ، ينتظرنى حراس يرتدون بدلات سوداء مزركشـة باللون الأحمر ، يفتحون لى أبواب سـيارة سوداء كبيرة جدا ، ونوافذها مستورة بستائر سوداء كثيفة ، أدخل الى السيارة ، وأغيب ثم أصحو !!

قلت متحرجا — ربما هو تطلع الى الثروة ؟ !

ضحكت واستلقت على ظهرها انحنيت عليهـا فشدتنى من رقبتى وقبلتنى بعنف ثم تنهدت • قالت :

— لقد جئت هنا بالأمس • لاحظت أن حمامة تطير غريبة وسط طيور النورس ، رفرفت بجناحيها ، فلوحت لها بمنديلى واتجهت غربا الى الكوخ الخشبى الذى يسكنه البحار العجوز ، سبطت ، اتجهت اليها وأمسكت بها ، عرفت أنها حمامة زاجل ،

أخذت الرسالة المربوطة فى قدميها ، فضضتها وعرفت ان زوجى يوسف سيأتى يوم الجمعة ، على أن أنتظره عند موقف الباص .

ابتسمت وقلت ــ أهو حلم !!

غضبت وصاحت ــ لا .. على آن آذهب الى موقف الباص لانتظر يوسف زوجى يوم الجمعة هلا أتيت معى !!

قلت ــ لا مانع ..

***

صباح الجمعة التقينا ، وقفنا قبل الساعة المنتظرة عند موقف الباص ، جاء باص أحمر وآخر أخضر ولم ينزل يوسف ، لم أكن قد رأيته من قبل لكنها وصفته لى قائلة انه بالغ الطول ، شديد النحافة ، شاحب وخجول . فجأة ، توقفت أمامنا سيارة سوداء ، تغطى نوافذها ستائر ســوداء كثيفة ، فجأة انفتح الباب الخلفى ، وفجأة سارت هى الى داخل الســيارة التى انطلقت مسرعة ..

تأملت الناس حولى ، كان أحدهم مشغولا بقراءة الجريدة ، وكانت احداهن تتلهى بعلق الآيس كريم فى شــهوة .. الباص الأصفر توقف فى الساعة المنتظرة هبط الناس وهبط معهم شاب طويل نحيل وشاحب عرفت أنه يوسف .

تقدمت اليه كى أعرفه بنفسى غير أنه أدهشنى بمناداتى باسمى ، قــال : لقد كتبت لى عنك ووصفتك لى وكنت أعرف

أنك ستكون هنا .. تعال نشرب فنجانا من الشاى فى المقهى المقـابل .

مشينا سويا ، منتظمى الخطوة كالجند فى الاستعراض ، جلسنا متقابلين فى المقهى ، رفع فنجان الشاى الى فمـه ونزلت دمعة من عينيه سقطت على خده سقطت فى فنجال الشاى ارتشف الشاى فى هدوء وقـال متألمـا ـ ان طعمه مر للغاية ..

ذات المعطف الأحمر

كانت فى لون القمح ، وكانت تتدثر بمعطف أحمر ، وترتدى بنطالا أسود وحذاء أسود برقبة •

أطلت برأسها وجسمها على الناس ، علينا نحن المنتظرين القطار تحت الأرض • تحرك الشاب الجالس الى جوارى ، كان أسمر اللون ، متجهم الملامح • عدل وضع بذلته الزرقاء السماوية ، نظر اليها ونظرت اليه ، ثم نظر الى جوربه وشده لأعلى • نظر اليها شاب أسمر آخر يرتدى سترة كحلية كالحة اللون ، مصنوعة من قماش الجينز • كان يتأبط حقيبة سفر كابية اللون ، كان عدوانى النظرة ، متأهبا ، يعلن عن حضوره فى كل حركة ، وفى كل سكنة •

كنت جالسا على طرف المقعد بجوار الشاب ذو البذلة الزرقاء السماوية اللون • تحركت ذات البشرة القمحية والمعطف

الأحمر فى حركة نصف دائرية • أخرجت من حافظة بلاستيكية صورا لوجهها (بورتريه) وشرعت تتأملها • نظرت الى ، حدقت فى وجهى ، ثم نظرت الى صورها مرة أخرى عدلت من وضع ياقة قميص ورابطة عنقى ، ارتبكت ارتباكا غريبا ، وقلقت قلقا ممزوجا بالنشوة واعترانى شعور غامر شبيه بارتعاشة الحب الأول ، بطعم القبلة الأنثوية الأولى الخالصة من الفم الى الفم ، شعور كهربى قاسى يسرى فى الرأس ، وفى الأطراف ، ويتركز فى البطن ويتوقف هناك •

ضجر الشاب الجالس الى جوارى ، قام من متعده ، تمشى فى هدوء •• وفى ملل • تمشت هى فى كبرياء وفى دلال وفى جمال ، تفننت فى مشيتها فانتظمت مع رتابة تنفسها ، مع استدارة وجهها ، ومع لون شعرها الكستنائى •

تأملتنى ، تحركت حركة نصف دائرية وجلست الى جوارى، مكان الشاب الأسمر ذو البذلة الزرقاء السماوية اللون • أحسست بخجل طفلى ، وكنت مندهشا من نفسى لهذا الخجل ، حملقت فى حذائى ، وسرقت النظر بطرف عينى فلمحت ابتسامة بلون القمح ، افتر عنها ثغر فى لون القمح المتشرب بالحمرة • كانت كلها جرأة واقتحام وصمود وتحدى أسرنى و عنى من أى محاولة للحديث •

حدجها الفتى الأسمر ذو السترة الجينز بنظرة ثاقبة ، عدل من وضعه بحيث يواجهها بزاوية حادة ، حملق فيها ، وكانت تعابير وجهه مزيجا من الرغبة والحنق والانتباه والاستعداد للعراك •

فجأة •• جلس الشاب الأسمر ذو البذلة الزرقاء السماوية اللون بينى وبينها ، تزحزحت هى قليلا الى الطرف ، وتزحزحت أنا أيضا ، قليلا الى الطرف الآخر ، حملقت فى حذائها ذى الرقبة ، تأملت مقدمته المدببة ، وتخيلت شكل قدمها وتذكرت حكاية سندريللا ، مرة أخرى حملق الشاب الأسمر فى جوربه ، شده لأعلى ونظر الى قضيب القطار •

قامت البنت ذات البشرة القمحية فجأة ، وقفت بجوار الشاب ذو السترة الجينز ، فاجأته بتحركها فركز نظره على معطفها الأحمر ، تلهث هى بالنظر الى لوحة المعلومات الدالة على حركة سير القطار •• ثم عادت مسرعة الى مكانها ، هذه المرة واضعة ساقا على ساق ، بحيث بدت القدم الأخرى ناحيتى ، أخرجت صورها مرة أخرى وشرعت تدرسهم فى ملل ، فى اعجاب ، وفى تأن شديد ••

جاء القطار ••

لم يك قطارى المنتظر ••

قامت واستقلت العربة التى فى المنتصف ، تحرك خلفها الشاب ذو السترة الجينز وبقى بجوارى الشاب ذو البذلة الزرقاء السماوية •

رفعت رأسها لأعلى ، هزت شعرها الأثيث فى حركة جنسية بالغة الاثارة ، ابتسمت ، ابتسمت أنا ، ولما قمت من مكانى متجها الى القطار أغلقت دونى أبوابه ، حدجنى الشاب الأسمر ذو السترة الجينز بنظرة قاتلة ، تحرك القطار ، واختفى تماما الشاب الأسمر ذو البذلة الزرقاء السماوية •

جاء قطارى ، وقفت ببابه أرقب الرائحين والغادين فى كل موقف • خرجت من تحت الأرض ونظرت فى الشوارع ، أبحث فى كل شارع ، درت حول العاصمة فى نصف دائرة ، ولمست كتف كل بنت بلون القمح وبمعطف أحمر وبنطال أسود وحذاء برقبة ، ولما استدارت كل بنت لترى من هو اللامس كنت أعتذر وأختفى وأتقدم من جديد ، بخطى بطيئة أحيانا ، وأحيانا بخطى لاهثة تقترب من العدو •

نزلت تحت الأرض مرة أخرى •

لمحت بطرف عينى انعكاسا لصورة البنت القمحية ذات الرداء الأحمر فى مرآة بطول الجسم ، كانت تتأمل وجهها المدور ، وكانت عيناها فى انعكاسة المرآة تفضح نشوتها الغريبة •

تقدمت بخطى هادئة يخالجنى شعور بالحب والشك والترقب والانتظار الذى طال • لمست كتفها الأيمن • استدارت •• ووجدت وجها عجوزا أكلته التجاعيد ، يضحك فى هستيرية ، ولما انتبهت وكدت أن أصيح ، تجمد الوجه وصار كالشمع بلون الزرقة الباردة ، ولما لمسته ، سقطت البنت العجوز على الأرض ميتة •

البنت والشمس والحكاية

كانت ترتدى رداء أخضر بلون الفستق ، وكانت تقضم تفاحة خضراء فاتحة اللون ، وكانت تجلس على أريكة خشبية بمقدمة المكان . بدت فارعة القوام حتى وهى جالسة . تنتعل حذاء باليه أخضر فاتح اللون بدون خيوط أو رسوم . كان شعرها بنفسجيا وعيونها تضىء بلون غريب هو مزيج من العسل واللؤلؤ وزرقة البحر . كانت رائحة البحر تنتشر حواليها ، ولما اقتربت منها توقفت عن القضم فكان جزء التفاحة داخل فمها والباقى خارجه تمسكه بيدها البضة . سألتها :

ــ أمنعتك عن انهاء تفاحتك .

أومأت بالايجاب ثم بدأت تلوك قطعة التفاح من جانب الى جانب داخل فمها ، أحيانا يبدو لسانها القرمزى ليعلق رحيق

التفاح الأخضر المتناثر فوق شفتيها القرمزيتين وزوايا وجنتيهـا ذاتا اللون التفاحى الأحمر الخفيف • قالت :

ـ اجلس ، فالشمس طالعة والجو جميل ••

جلست تأملت انفها الرومانى فى دقة ، كانت عيناها سادرتان فى البعد وكأنها تحلم ، قلت :

ـ رأيتك مع صديقتك تتحدثين يوم التقينا بالحديقة •

ـ نعم كنت أقــول لها لو أمســك هـذا الفتى بيدى لأحببته !!

ـ وهل أمسك ؟!

ـ نعــم !!

حاولت ان اتذكر متى فعلت ، ادركت أنه قد يكون فتى آخر لكنها سارعت قائلة :

ـ لقد جئت فى الحلم وأمسكت بيدى ، ثم رفعتها الى شفتيك ثم تأملتنى ، وفى الحقيقة صافحتنى ، فاختلط على الورد الأحمــر بزهر القرنفل وكدت أطـير كالفراشـة الحـائرة • ابتسمت فى خجل مصطنع وقلت :

ـ هلا دخلنا الى داخل المكان ••

أومأت مجيبة ثم نهضت ، وبدا جسـدها الفاره يمشـق الفضاء حوله ، خطت بخطى بسيطة وكأنها تسير على المـاء ، وأنـا خلفها •• جلسنا قبالة بعضينا ، تنهدت ، شبكت يديها بين فخذيها ثم قالت :

— احك لى حكاية ؟ !

فكر قليـلا ثم قلت :

— حكاية قديمة !!

قـالت :

— أى حكاية تكون !!

قـلت :

— حكاية الجنة والنار ؟ !

أومأت مجيبة فبدأت أحكى :

سأل أحدهم الرب أن يريه النار فأدخله غرفة تتوسـطها منضدة دائرية كبيرة ، كان الناس حواليها ، كانت تبدو عليهم ... اليأس والقنوط ، فى وسط المنضـدة كان هناك وعـاء ...ئ بالحساء ، مليء لحد يفوق حاجة الجميع ، كانت ...حة الحساء غالية ومثيرة للشهية • الناس حول المنضـدة

يمسكون بملاعق خشبية ذات أيدى طويلة جدا ، كان بالمستطاع أن يغرف كل منهم من الحساء ولكن كان من المستحيل العودة به الى فمه لأن ذراع الملعقة كانت أطول من ذراع كل منهم ، كانوا يتألمون بشدة ... سأل الرجل الرب أن يريه الجنة ... فأدخله الى غرفة أخرى مشابهة للأولى تماما . منضدة دائرية كبيرة ، وعاء كبير ملىء بالحساء والناس يتسلحون بالملاعق الطويلة الأذرع ، كان الناس مبتهجين وكانت تبدو عليهم أمارات الشبع والغبطة والاكتفاء كانوا يضحكون عاليا ويتحدثون كثيرا ، لم يفهم الرجل السر ، قال الرب : ان المسألة سهلة ، تحتاج لمهارة بسيطة ، لقد تعلموا أن يطعم أحدهم الآخر ..

ضحكت عاليا ، استلقت على ظهر المقعد ، قامت ، جلست على الأرض وقالت : أنت رائع .. انى أحبك ..

قلت : أنت جميلة .. وأنا أريدك ..

قالت : أنا لا أنام مع كل من يشتهوانى لابد وأن أكون حقا أسيرة لك فأعطيك نفسى راضية مرضية .. تعال هنا أسقيك الخمر والعسل ..

قبلتنى بنهم ، احتضنتنى فى رقة ، وكنت مستسلما لها وكأننى طفل غرير ، كانت تدللنى برفق ، تهدهدنى بحنو ثم صاحت : أتمنى لو آكلك ..

لمـــاذا لا تخرج معى الى الشمس ••

قلت : أخاف الناس ••

قالت : أتخاف وأنت الرجل ؟ !

قلت : أخاف وأنـــا العاشق !!

ابتسمت فى حزن ، فتحت باب الغرفة المطل على الحديقة وخرجت الى الشـــمس ترقص على أطراف أصابعهـــا ، ترفرف بجناحيها حتى اختفت •

البنت والأم والجد

١

كان اسمها (جانين) ، كانت حزينة متأوهة مليئة بالشجن ، مطرقة برأسها ، محدقة فى موضـع قدميها ، كانت ترتدى بنطالا أسود اللون ، وقميصا ورديا ، بدا وجهها الطفلى صغيرا ، قالت :

ـ لقد تجرعت الدواء بكثرة لأموت ، غير أنى سعيدة لأنى مازلت أحيا •• ثم أعقبت :

ـ أمى وزوجهـا يظنان أننى مخبولة ، انهما شريران ، وأنـا أمقتهما بشدة ، كذلك فاننى أمقت أبى ، لأنه قد تركنى ورحل بعيدا يحتسى الخمر بكثرة •

ولما انتهى اللقاء ، مددت يدى لأصافحها ، ترددت كثيرا ، غير أنها فى النهاية صافحتنى ، حدقت فى وجهى ثم قالت :

— الآن ، سأستحم فورا ، سأغسل جسدى كله ، من قمة رأسى الى أخمص قدمى بالماء والصابون ، كى أتطهر من دنسك ، دنس كل الرجال •

٢

جاءت مبكرة عن موعدها ، مرتدية قفازا أبيض ، وقميصا أبيض بثلاثة أرباع كم ، مطرزا بدقة حول الرقبة ، وحول الأكمام ••• فوق القميص كانت تضع رداء من القطيفة السوداء ، تنتعل حذاء أسود برقبة قصيرة مصنوعا من الشمواه •• كان وجهها شاحبا به صفرة مرضى السل فى القرن الثامن عشر ، بدت كعروسة مولد افرنجية ، أو كوصيفة من بنات العصور الوسطى ، تأملتنى ثم قالت :

— ولأنى بنت أمى ، فلقد كان على أن أعتنق دينها ، ان ديننا يسمى (شهود جوهافا) ، نحن لا نعترف بأشياء كثيرة منها الاحتفال بأعياد الميلاد ، لهذا لم أحتفل بعيد ميلادى الا بعد أن تركت هذا الدين ، يومها عنفتنى أمى • لقد كانت ومازالت

وستظل آملة أن أعود لدينهـا ، لكنى لن أعود مهمـا كلفنى الأمـر .

خرجت من البـاب ، نادت على أمهـا التى بدت كصبية فى الأربعين من عمرها ، شعرها الأشقر يلمع فى ضـوء المصباح النيون ، كانت شديدة الشبه ببعض ممثلات هوليود .

جلست الأم فى مواجهة (جانين) التى قالت فى حدة :

ـ أنت السبب فى كل ما حدث ، وفى كل ما يحـدث ، منذ أن ترك أبى البيت وأنت تتمرغين فى أحضـان الرجـال ، زوجك مجرد مراهق تتباهين به وتحبين شبابه ، انه دخيل متطفل وحقير مثلك .

هزت الأم رأسها فتناثر شعرها الأشـقر ، وبدا جزء من عنقها الأبيض المكتسب سـمرة صناعية غالبا ما ولدتها سرائر الشمس الكهربية ، قالت فى هدوء :

ـ ان جانين مضطربة ، متألمـة ، محتارة ..

ان هناك شىء ما يوترها ، شىء كبير جدا .. كنت أعرف أن جـدها لأبيها ، رجـلا غريب الأطوار ، لهذا فلقد حاولت التدقيق فى الأمر فسألت جانين مباشرة :

ـ لمـاذا تهربت من سؤالى عندما ذكرت جدك ؟

دمعت عيناها ، اختنق صوتها وقالت :

انه أمر مفزع .. قاتل ، مدمر ، وحشى !

خرجت جانين من الباب ، خلفها مشت أمها ، تقدما الى السيارة ، كانت الشمس تسقط على البيوت الريفية الصغيرة ، رمقتهما من خلال فتحة الشباك وهما يحتضنان الشمس داخل السيارة ، ثم أسدلت الستار .

٣

بدت جانين غريبة جدا ، مثل الموديل ، أو نجمات الاغراء .. كانت المساحيق فوق وجهها منسقة بطريقة متناغمة مع مساحة الخدين والجبهة والأنف ، ويغطى الجفون لون فستقى خفيف ، كان شعرها مصففا بحيث ينساب على جبهتها وعلى الأذنين كعرائس الأطفال البلاستيكية ، كان شديد اللمعان ، وكانت شفتيها مطليتين بأحمر شفاه قرمزى فاضح ، كانت تضع على كتفيها معطف قصير من الفرو الأبيض الخالص ، ترتدى تحته قميصا شديد النعومة ، شاهق البياض ، وأزراره من الفضة اللامعة ، كانت تنورتها من القطيفة البنفسجية الداكنة ، وقدميها تغوصان فى حذاء جلدى قرنفلى له رقبة تصل الى حد الركبتين ، بدت أناملها طويلة ونحيلة ، أظافرها مسحوبة ومطلية بدقة

شـديدة ، رمت بالمعطف الفرو الأبيض القصـير على المقعـد وقـالت :

ــ لن أجلس ! سأظل واقفة !

وقفت قبـالة الشـباك ذو الستارة المعدنيـة النصف مفتوحة .. استطردت :

ــ أنت تعتقد أن سبب همومى هو الصراع العـائلى ؛ وأنـا أعتقد أن كلامك محض هراء ..

ابتسمت ابتسامة مصطنعة وقلت :

ــ ربما كان !! لكن لمـاذا تتزينين هكذا اليوم ؟ !

نظرت الى فى حقد شديد ، اتقدت عيناها بشـهوة طفلية غامرة وقـالت :

ــ لعلك تظن أنى أتجمل لك ! تقدم ! تشجع ــ واعترف أنك معجب بى ..

كنت جالسا على مقعدى المتحرك ، أتحرك به فى حيز ربع دائرة ، كانت مازالت واقفة توزع بصرها ما بينى وبين الشباك . نهضت واقفـا وقلت :

ــ لمـاذا تنظرين الى موقف السـيارات من خـلال الشباك . اننى أعلم أن أمك بالخارج . هل تريدين اثبـات شىء لها ؟ !

وقفت قبالتى ، رأسها بموازاة رأسى ، عيناها فى عينى ، شفتاها بموازاة فمى ، صـــدرها يعلو ويهبط مع صوت تنفسى ، أقدامى أمام حذائها العالى الرقبة ، وفخذاى فى مواجهة تنورتها القطيفة البنفسجية الداكنة اللون .

رفعت يديها النحيلتين فى الهواء ناحية عنقى ، بدت أظافرها الطويلة المســحوبة المطليــة باللون الأحمر ، مشرعــة متأهبــة مشتاقة ، قالت وهى تضغط على شفتيها مخرجة الكلمــات من بؤبؤ عينيهــا :

ــ نعم ، أريد أن أغتصبك أمام أمى . لأنك الوحيد الذى يعرف سر جدى . تشنجت يداها فى الهواء وكأنها تلتف حول رقبتى ، تحسست عروقى وجــلدى ، بلعت ريقى ، تنحنحت ، انتظرت ، انتظرت طويلا .. لكنها ظلت كالتمثال .. متشنجة كما هى حولى دون أن أكون بينها . دخلت أمها وزوج أمها ، حملاها من القدمين والكتفين كمـــا تحمل النقالة ، مشيا بها فى الطرقة ، نظرت من فتحة الستارة المعدنيــة ، رأيت الأم وزوج الأم يضعان جانين على الأرض ، وهى مازالت كما هى ، فتح زوج الأم مؤخرة السيارة ، وضعا جانين بها ، أغلقاها ، كان الجد يجلس فى المقعــد الخــلفى ، جلست الأم خلف المقود ، جلس بجانبها الزوج ، وانطلقت السيارة مسرعة .. فنبح كلب الحارس يـــلا .

بدريــة والحمــام

كانت تسترخى على عتبة الدار ، مستلقية بجسدها البض المتألق المدور الفتان ، تدعو الشمس الى مسام جلدها الشفاف ، تحتضن النهار فى صـــدرها ، تتأمل زرع الملوخية الأخضر وهو ينتشر على (الطبلية) ، النائمة الى جوارها . يلمع حد السكين النصف مدورة القاطعة لمعانا خرافيا فيتوهج قلب بدرية •

تمد رجليها وتكشف عن جزء من فخذيها لتتيح للشمس فرصة أكبر كى تتوهج فيها ، يهبط الحمام ناحية رأسها ليلتقط ما تبقى من حب •

تفك شعرها الأسود الفاحم الأثيث فتنتشر فى الجو رائحته المعبقة بالنرجس ، يلمع جدا فى وهج الشمس التى بدأت تحرق أطراف أذنيها فبدت حلمتهما محمرتين بشبق جنسى جارف • بلعت

بدرية ريقها وتنهدت وهى تتذكر طفولتها .. كانت تجرى وراء الصبيان ، تقذفهم بحجر ، وكانوا يجرون وراءها يدفعونها فى حنو شديد على الأرض الحجر ويدغدغونها فكانت تضحك وتلهث وتتثاءب . دق قلبها وهى تتذكر أول مرة جاءها فيها الحيض وابتلت ملابسها وفراشـــها بالدم الأحمر الغامق ، كيف فزعت وتأججت واضطرب جسدها بعنفوان قاتل ، كيف جرت الى أمها تخبرها بالفضيحة ، بالجرح ، وبالعفريت الذى أتى فى الليـــل وأدماها . كانت تخاف على بكارتها وتخاف منها ..

قالت لها بعض البنات ان العفريت يأتى بشفرة حادة ويجرح الجزء الحساس قبل طلوع الفجر مباشرة ، هزات منهن وصرخت فى أمها سائلة عن الحقيقة . قالت الأم :

— ده خير ، أنت كبرت وبقيتى عروسة ، لازم نجوزك بسرعة .

اضطربت بدرية لسير الزواج ، حدقت فى سعف النخيل الذى يسند سقف البيت ، شمت رائحة الطبيخ وقامت تجرى وراء الدجاج المذعور لتمسكه ، تذبحه ، تنظفه ، تسلقه ، وتشرب مرقه ، لتخرج عينيه من رأسه وتضعها تحت وسادتها حرزا ضد الشـــيطان .

عادت بدرية لتستلقى ، تترك جســـدها يتحلل فى ضـــوء

الشمس ، فخذاها يلتهبان بالحرارة ، حرارة الشمس القوية ، وحرارة الاحتكاك الصعبة .

توجعت فى نومتها ، سبلت عينيها ، ثم فجأة سمعت وقع أقدام تدق الأرض عند نهاية الحارة . أحست بهبوط عميق يشق صدرها ما بين النهدين متركزا فى البطن عند السرة . فتحت شق ثوبها وبصقت فيه قائلة فى خوف ـ اللهم اجعله خيرا ! . نظرت جولها فى ترقب .. ظلت الحارة ساكنة كما هى غير أن وقع الأقدام الغريبة استمر ، كادت بدرية أن تجن .. كلمت نفسها :

ـ خير .. يارب اجعله خير .. أنا مش شايفة قدامى غير الكلب التايه ده ..

وفجأة ، فاجأها أحمد ابن الجيران الذى لا يتعدى الثامنة من عمره ، نظرت اليه بدرية فى عتاب وقالت :

ـ اخص عليك يا أحمد .. خوفتنى ..

ضحك أحمد فى عصبية شاب فى الثامنة عشر .. اقترب منها وهى مازالت نصف جالسة ، ! ينحسر الثوب عن فخذيها ، ويظهر جزء من صدرها ملتهبا بحرار الشمس ، ركب أحمد فوقها وأمسك بثدييها بكلتا يديه وعصرهما بشدة ، لم تصرخ بدرية ولم تضحك ، خرجت منها شهقة تمتزج بين الصراخ

والضحك ، شهقة نشوى محتارة ، أزاحت أحمد بيديها فى رقـة قائـلة :

– يوه .. ابعد يا ولد .. من علمك كده .. ضحك احمد مرة أخرى فى عصبية شاب فى الثامنة عشر قائلا :

أبويا قال لى امسك الحمام قبل ما يطير ..

ندت عن بدرية ضحكة رقيعة .. غمزت بعينيها وسألت :

– وهو فين الحمام ده ؟ !

رد أحمـد بسرعـة :

– الحمام طار من عشنا من زمان ، من ساعة ما ولدت أمى العيـل السـابع ، الولد مص كل اللبن اللى فى صـدرها ، ولمـا سألتها ليه العيل بيبكى ، قالت الحمـام أخذ اللبن كله وطار .. من يومها وأبويا سرحان بيبص للسما ..

احتضنت بدرية أحمد ، قبلتـه فى فمه ، فطرقعت القبلة عاليا ، وشم أحمد فى رائحتها الحمام ، وأحس بطعم اللبـان الذكر ..

فهرس

صفحة

